نظرات نورانية

فى القرآن الكريم

«سورة الحاقة»

مع مذكرة فى التفسير وعلوم القرآن

تأليف

أ. د. عبد الفتاح عاشور

أستاذ التفسير وعلوم القرآن ورئيس قسم
الدراسات الإسلامية بكلية التربية - جامعة الأزهر

١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م

رقم الإيداع: ٢٠٠٢/١٨٤٥
الترقيم الدولي: 1 - 568 - 6076 - 977

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله، أحمده أن جعلنا من أهل الإسلام، وأكرمنا بالإيمان وشرفنا بالقرآن، وجعلنا من أمة خير الأنام: «محمد» - عليه الصلاة وأزكى السلام-، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، من عرفه عرف الخير كله، ومن جهله جهل الخير كله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله دعا إلى الله على بصيرة، وأرشد إلى طريق ربه بالحكمة والموعظة الحسنة، فاستجابت لدعوته القلوب، وانتشر دينه فى الآفاق، فصلوات الله وسلامه عليه وعلى أصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين... أما بعد:

فكثيرا ما تمنيت أن أفرُغ لكتاب الله، أجلس على مائدته فأشبع القلب والروح من خيراته وبركاته، وأكتب تفسيراً لكلماته وآياته، من أول الفاتحة إلى آخر القرآن، ولكن ما كل ما يتمنى المرء يدركه، والقرآن لا تنقضى عجائبه ولا يخلق على كثرة الرد، ولذلك يقف العلماء عبر القرون - من يوم نزوله إلى الآن، وإلى أن تقوم الساعة يلتقطون من جواهره، ويقتبسون من نور آياته، والقرآن كما هو بحر زاخر بالمعانى، ملئ بالأسرار، وهذا مما شجع العلماء والباحثين على مداومة النظر فيه، لم يقل واحد منهم لقد كفانى السابقون من العلماء مؤنة البحث، ولم يقل واحد منهم: وماذا أضيف أنا إلى ما كتبه من سبقنى من العلماء الأفذاذ؟ إنما أخذ ينهل مما نهلوا منه، فأضاف الكثير والكثير، واستخرج من بحر القرآن ألوانا من المعانى لم يسبقه إليها أحد.

وعلى هذا الدرب أسير، وإذا لم يكن لى شرف كتابة تفسير كامل للقرآن كما فعل الأوائل والأواخر، فحسبى أننى كتبت ما كتبت، وشرحت لطلابى الكثير والكثير من آيات القرآن وسوره وقدمت من خلال المحاضرات العامة والدروس ووسائل الإعلام فى مصر وغيرها تفسيراً لآيات وسور كثيرة منها ما هو مسطر فى أوراق تحتاج إلى جمع وترتيب لتطبع وينتفع بها طلاب العلم.

وهذه سورة «الحاقة» فيها من اللمحات القرآنية والأنوار الإلهية ما تراه فى كل حرف وفى كل كلمة، وهذا هو الذى حاولت أن أقدمه بين يدىّ القارئ، دون أن أشغله بالوقوف عند المباحث الأخرى، إلا ما دعت إليه الضرورة، فقد أدى علماؤنا الأوائل - عليهم رحمة الله - واجبهم فى هذا على أكمل وجه وأتمه، إنما أقف معه عند الكلمة فى الآية لأغوص معه فى بحارها فى محاولة لاستخراج ما فيها من الكنوز الربانية والمعانى الإلهية، دون شطط فى التعبير، أو تحميل الكلمة ما لا تحتمل، إنما أردت إبراز هداية القرآن، والتى هى الغاية من إنزاله، وما تراه من هذا المنهج فى التفسير هو الذى اتبعته منذ أن أكرمنى الله بالكتابة والتأليف حين عينت فى الجامعة عام ١٩٧٣م وصدر لى كتاب: (فى ضوء القرآن) بالاشتراك مع بعض الزملاء فسَّرْت فيه آيات من سورة النور: هى آيات آداب الاستئذان وآيات الحجاب كما فسرت الإخلاص والمعوذتين، وتواصلت هذه المسيرة فصدر لى: فى رحاب القرآن، ومن هدْى القرآن وكلاهما بالاشتراك مع بعض الأساتذة فى جامعة الأزهر، كما صدر لى كتاب: نظرات فى سورة الفرقان عام ١٩٨٥م وهكذا أصبح هذا المنهج فى التفسير واضحا كل الوضوح وفى كل يوم بل فى كل لحظة يزداد المرء علما وخبرة بفن الغوص فى بحار القرآن العظيم، وهذا من نعم الله العظيمة التى أكرمنى الله بها، فله الحمد على ذلك حمدًا كثيرًا ، وفى هذا العام (١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م) صدر لى - بحمد الله كتاب : نظرات نورانية فى القرآن الكريم (سورة الصف) وتحت هذا العنوان يصدر - بمشيئة لله وعونه وتوفيقه - هذا الكتاب الذى تراه بين يديك (نظرات نورانية فى القرآن الكريم : سورة الحاقة).

أسأل الله أن يديم علينا نعمه، وأن يبارك لنا فى القرآن العظيم، وأن ينفعنا بما فيه من الآيات والذكر الحكيم، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الفقير إلى ربه الغفور

عبد الفتاح عاشور

بسم الله الرحمن الرحيم

بين يدى السورة

حمدا لله، وصلاة وسلاما على رسول الله وبعد...

فالقرآن ملىء بالأسرار، عامر بالخيرات والبركات، وكل لفظة من ألفاظه درة غالية، من أى ناحية نظرت إليها أخذك بريقها، وإنما يظهر لك هذا بمقدار ما عندك من الإيمان وصدق اليقين، وحسنِ الإقبال على الله عز وجل، وخير ما يعين على اقتباس نور القرآن واقتناص شوارده ومعانيه بعد التحقق من مقام العبودية لله، والتفوق فى تحصيل علوم القرآن، تلك التى اشترطها الأئمة فى من يريد تفسير كتاب الله، هو أن تدرك بأن كل سورة فى القرآن لها هدف وغاية، تأتى آيات السورة لتحقيق هذا الهدف وتلك الغاية، فترى فى هذه الآيات الكلمات وقد وضعت فى أماكنها، وجاءت حروفها وتضامت إلى غيرها من الكلمات بطريقة تختلف عنها إذا ما قرأتها فى سُوَر أخرى، وتلمح طول الآيات أو قصرها فى التعبير عن قصة من قصص القرآن أو موضوع من موضوعاته أو قضية من قضاياه، وما ذلك إلا لتحقيق هدف السورة وإبراز أغراضها، فإذا ما حددْتَ هذا الهدف للسورة وبدأت فى النظر فى آياتها سوف يروعك أن كل مجموعة من الآيات - أيضا - تساق لتحقيق غرض معين فى ضوء هدف السورة العام، وكل آية فى السورة ترتبط بسابقتها كما تمهد للاحقتها، فى تناسق لا تجده إلا فى القرآن العظيم، واقرأ فى هذا ما كتبه من كتبوا فى إعجاز القرآن لتعرف مدى ما فى هذا الوجه من دلالة على أن هذا القرآن من لدن عليم خبير.

وسوف أضع يدك على هذا كله - بإذن الله وتوفيقه - من خلال الحديث فى السورة: سورة الحاقة عن أهدافها وغاياتها وآياتها وكلماتها وحروفها، لتعرف صدق ما قلته لك، من أن هذا القرآن بحر زاخر بالمعانى يحتاج إلى الغواص

الماهر لاستخراج لآلئه وجواهره، فهيا على بركة الله لنعرف أولا: وجه المناسبة بينها وبين السورة التى تسبقها فى المصحف وهى سورة: القلم، ثم نطوف - ثانيا - حول أهداف السورة ومقاصدها ومعانى آياتها على وجه الإجمال ثم نختم ذلك بالغوص فى بحارها فيما نسميه بالتفسير التحليلى للآيات.

أولا: وجه المناسبة بين سورة الحاقة وسورة القلم:

سورة الحاقة سورة مكية، عدد آياتها اثنتان وخمسون آية، تأتى فى ترتيب السور فى المصحف بعد سورة «القلم» وترتبط بها ارتباطا وثيقا، فهى تفصيل بعد إجمال: بين الله فى سورة «القلم» حال المشركين يوم القيامة فقال: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ﴾ [القلم:٦٨/ ٤٢، ٤٣].

وأوضح هذا فى (الحاقة) أيما إيضاح، وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير: لما بُنيتْ سورة (ن والقلم) على تقريع مشركى قريش وسائر العرب وتوبيخهم وتنزيه نبى الله ﷺ عن شنيع قولهم وقبيح بهتهم، وبين حسدهم وعداوتهم: ﴿وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ﴾ أتبعت بسورة الحاقة وعيدًا لهم وبيانًا أن حالهم فى سوء ذلك المرتكب قد سبق إليه غيرهم[1]. وقال الإمام البقاعى فى نظم الدرر: لما قدم سبحانه فى (ن) الإنكار الشديد لأن يُسوَّى المسيء بالمحسن، وذكر القيامة وبينها بيوم كشف الساق وزيادة المشاق، وهدد التهديد العظيم بآية الاستدراج الذى لا يدفع بعلاج، وختم بأن القرآن ذكر ـ أى شرف ـ وتذكير، ومواعظ للعالمين فى شمولهم كلهم برحمته، أما من بعد إنزاله فبوعيده ووعده ووعظه وقصه وأمره ونهيه وأما من قبل إنزاله فبالشهادة لهم وعليهم، وكان تأويل ذلك وجميع آثاره إنما يظهر ظهورًا تامًا يوم الجمع الأكبر وكان ذلك اليوم أعظم مذكر للعالمين وواعظ لهم وزاجر، تنبنى جميع

(١) انظر: نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور: للإمام البقاعى (٨/ ١٢٠).

الخيرات على تذكره وتذكر العرض على الملك الديان، والسر فى إنزال القرآن هو التذكير بذلك اليوم الذى هو نظام الوجود، قال واصفًا للقيامة واليوم الذى يكشف فيه عن ساق، واعظًا بذكرها ومحذراً من أمرها: ﴿الحاقة﴾ ثم أخذ يربط بين ما جاء فى السورة من موضوعات وكيف أنها ترتبط بما جاء فى سورة (ن) ارتباطًا وثيقًا.

ثانيا: موضوع السورة وهدفها:

لكل سورة فى القرآن محور وموضوع تدور حوله آياتها وهو ما يعرف بالوحدة الموضوعية فى سور القرآن الكريم، وهناك دراسات جادة ونافعة فى هذا الاتجاه قام بها طلاب الدراسات العليا فى أقسام التفسير وعلوم القرآن فى الكليات المتخصصة، والذين أصبحوا الآن أساتذة يشار إليهم بالبنان، كما قام بهذا الجهد الكثير من العلماء، فالحمد لله أن هيأ لدينه وكتابه من يحمل رسالته، ويحمى حماه محققًا بذلك وعده الذى لا يُخلف إذ قال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر: ٩].

فماذا عن سورة الحاقة؟ ما هى الأهداف التى جاءت آيات السورة لتحقيقها؟

الهدف واضح تحمله آيات السورة وحروفها، إنها إنذار لمن وقفوا فى وجه الدعوة يحاربونها بكل ما أوتوا من ألسنة حداد، ومال وجاه، من قالوا زوراً وبهتانًا فى النبى الطاهر المبارك، صاحب العقل الراجح، والفكر الصائب، ومن أوتى جوامع الكلم، ومن آتاه الله الكتاب والحكمة وعلمه ما لم يكن يعلم محمد ﷺ، قالوا: بأنه مجنون مما جعل رب العزة يقسم على براءة رسوله مما يقول هؤلاء الظالمون فيقول: ﴿نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝٥ بِأَييِّكُمُ الْمَفْتُونُ ۝٦﴾، ويأمره بالصبر على كيدهم فيقول: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ

(٤٨) لَوْلا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ (٤٩) فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٥٠) وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ (٥١) وَمَا هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ (٥٢)﴾.

إنذار لأمثال من قال الله فيه: ﴿وَلا تُطِعْ كُلَّ حَلاَّفٍ مَّهِينٍ (١٠) هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ (١١) مَنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (١٢) عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ (١٣) أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ (١٤) إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ (١٥)﴾ وكم فى هذا من تطمين لرسول الله ﷺ وتثبيت لفؤاده، وتطمين وتثبيت للمؤمنين به.

لقد أتت آيات السورة تسلية لرسول الله ﷺ عما نزل به من إيذاء قومه وتكذيبهم له، وتثبيتا لفؤاده، كما قال تعالى: ﴿وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود:١١/ ١٢٠] وكما قال: ﴿كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً (٣٢) وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٥/ ٣٢، ٣٣] ولهذا ذكر يوم القيامة بما فيه، وأبرز عاقبة المكذبين فى الدنيا، ثم ما يكون من أمرهم فى الآخرة من الندامة والحسرة، ثم ما جاء من حديث السورة عن القرآن وأمانة الرسول ﷺ فى تبليغه ما أوحاه الله إليه، وشهادة الله لهذا القرآن بأنه حق اليقين مما يتطلب من رسول الله ﷺ أن يديم التسبيح لله الذى رباه على موائد كرمه، واختاره نبيا ورسولا، وألا يأبه بحماقات الحمقى وجهل الجاهلين من هؤلاء المشركين، لأنه يتلقى الوحى ويحظى بالتأييد والتسديد من ربه العظيم، ومع هذا الهدف الأصلى للسورة تأتى أهداف أخرى تابعة له، وهى تخويف المعاندين المكذبين وتهديدهم بالمصير المشئوم، وتثبيت أهل الإيمان وإدخال الفرحة على قلوبهم بما أعد الإله لهم من عظيم الثواب فى جنة عالية، قطوفها دانية، ومن هذه الأهداف: إثبات يوم القيامة وما يكون فيه من أهوال، وحث المؤمنين على مواصلة طريقهم: طريق الطاعة لله، والعمل على بذل الخير لخلق الله، وبيان أن القرآن من عند الله، إذ لو كان من عند محمد ﷺ كما يدعى

الظالمـون لمـا بلغ عـن ربـه مـا أوحاه الله إليـه في هذه السـورة من قوله تعـالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٦٩/ ٤٤-٤٧] إلى غير ذلك من الأهداف التى تأتى فى ضوء تثبيت فؤاد رسـول الله ﷺ والمـؤمنين معـه فى تلك الفـترة العـصيبة من مـسيـرة الدعوة فى مـكة، وما لقـيه ـ عليـه الصلاة والسـلام ـ والمؤمنون به من عـنت وصد وعدوان، حـتى سقط بعض أصحـاب رسول الله ﷺ شهداء من شدة ما نزل بهم من تعذيب كياسر وسمية - رضى الله عنهما - واضطر آخرون للهجرة للحـبشة مرتين ثم كانت هجرتهم وهجـرة رسول الله ﷺ إلى يثرب «المدينة المنورة» ومن بقى لم يهـاجر للحبشة، ولم يتمكن من الهـجرة إلى المدينة تحمل صنوفا من العذاب تنوء بحـملها الجبال، فكانت الآيات فى مكة تنزل تداوى جراحـهم وتطمـئن قلوبهم وتثبت أفـئدتهم، مـما جـعلهم يصبـرون إلى أن منَّ الله عليهم بنصره واسـتخلفهم ومكّن لهم فى أرضه، وبقى جهـادهم وما ترتب عليه من نصر وتمكين درسـا لأمة الإسلام تستلهمـه كلما تداعت عليها الأمم، كـما تتداعى الأكلة إلى قصعتـها، كل أمة تريد أن تخطف لنفسها قطعـة من أمة الإسلام، حينذاك يكون سبيل هذه الأمة هو سبيل رسولها صلوات الله وسلامه عليه، وسبيل أصحابه الذين اهتدوا بهـديه وساروا على دربه، وتلك سنة إلهيـة لا تتخلف: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً﴾ [الفتح: ٤٨/ ٢٣].

ثالثا: المعنى الإجمالى للسورة:

هذه السـورة - كـمـا ذكرنا - إنذار لـلمكذبين، وتطمـين لرسـول الله رب العالمين -محمد- عليه الصلاة وأزكى التسليم-.

إنذار للمكذبين: بـذكر مـا حل بالأمم المكذبة لأنبيـائها، وبمـا يسـبق يوم القيـامـة وما يصـاحبه ومـا يتبعه مـن أهوال وأحوال، وفى هذا تسليـة للنبى ﷺ والمؤمنين معه ببيان أن العاقبة الكريمة له ولمن آمن به.

وقد بدأت السورة باختيار كلمة «الحاقة» وصفا ليوم القيامة، وعظَّمت من هذا الوصف ببيان أنه مما لا تحيط به العبارة، لما فيه من أمور كانت غائبة عن المعاندين، وكانوا ينكرونها وهى الآن واقعة محققة، بما يشاهدونه من النفخ فى الصور والبعث والحشر والحساب والجنة والنار، وبما حق عليهم من العذاب الذى سخروا منه فى الدنيا حين كان يُذْكَر لهم.

وهذه هى ثمود: قوم صالح - عليه السلام - وعاد: قوم هود - عليه السلام - كذبت كل منها بالقارعة، التى تقرع القلوب قرعا شديدا وهى تشاهد مشاهد يوم القيامة. فماذا كان من أمر عاد وثمود؟ لقد أخذهم العذاب فى الدنيا فأهلكهم وبقى لهم عذاب الله الأكبر هناك فى الآخرة، فأما ثمود فقد صاح فيهم جبريل - عليه السلام - صيحة اهتزت لها الأرض من تحت أقدامهم وتزلزلت فهلكوا جميعا، وأما عاد فقد أهلكهم الله بريح قوية عاتية، استمرت سبع ليال وثمانية أيام متتابعة فلم تبق منهم أحدا، وهذه أمم أخرى كذبت رسلها: هذا فرعون ومن قبله من الأمم، وهذه قرى قوم لوط، كل أولئك عصوا رسل ربهم فأخذهم أخذة شديدة أهلكتهم، والقرآن يتجه إلى من نزل فيهم هذا الوحى ليذكرهم بما كان من أمر سفينة نوح -عليه السلام- تلك التى أنجاها الله من الطوفان فبقى هذا النوع الإنسانى، والذين هم من نسله، وكان هذا النوع الذى ركب السفينة من المؤمنين بالله، فلماذا - إذا - كفر هؤلاء بربهم؟؟ وكما أهلك الله من كفر بنوح ونجاهم، يهلك المكذبين لرسوله وينجى الله رسوله والمؤمنين.

وإذا كان هذا العذاب قد حل بهذه الأمم فى الدنيا فهناك موعد آخر فى يوم القيامة، والذى يبدأ بنفخ إسرافيل فى البوق نفخة واحدة هى نفخة الصعق أو نفخة البعث، لتتوالى أحداث يوم القيامة: من حمل الجبال ودكها ونسفها، وتشقق السماء وسقوطها وزوالها، وانتشار الملائكة على نواحيها وأرجائها، ونزول رب العزة والجلال للفصل بين العباد تحمل عرشه الملائكة، حينذاك يعرض الناس على ربهم لا تختفى منهم خافية، وتتطاير صحف الأعمال، وقد

سطر فيها كل صغيرة وكبيرة، فأهل السعادة يؤتون صحفهم وكتبهم بأيمانهم، وأهل الشقاء والتعاسة يؤتون صحفهم وكتبهم بشمائلهم، فأما من أوتى كتابه بيمينه فتراه فرحا مسرورا، ينادى أهل الموقف أن هلموا فاقرأوا كتابيه، فقد تحقق وعد الله له فهو الآن يلقى جزاءه إنه يحيا حياة ملؤها الرضا عن الله فى جنة عالية، فيها ألوان الفاكهة، قريبة منه لا تحتاج إلى جهد فى تناولها، وفيها أنواع المآكل والمشارب يقال لهم - تكريما واحتفاء - كلوا واشربوا هنيئا جزاء ما كان منكم من أعمال صالحة فى الدنيا، فما أعظمها من نهاية، وما أكرمه من نعيم، وأما من أوتى كتابه بشماله فهو يتحسر ويندم ويصيح بين أهل الموقف قائلا: يا ليتنى لم أوت كتابيه ولم أدر ما حسابيه يا ليت الموتة الأولى التى كانت فى الدنيا كانت القاضية فلم أبعث ولم أحاسب لقد ضاعت منى فرصة الحياة وجئت وحيدا فريدا فلا المال نفع ولا السلطان دفع وبينما هو يتجرع حسراته صدر الأمر الإلهى لملائكة العذاب: ﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ ﴾ [الحاقة:٦٩/ ٣٠-٣٧]. أى خذوه بعنف وقوة فضعوا القيد فى يده مشدودة إلى عنقه ثم ادفعوه إلى النار الشديدة الملتهبة التى يشوى فيها كما تشوى الشاة توضع على الجمر حتى تنضج وهو فى ذلك قد أدخلوه فى سلسلة طولها سبعون ذراعا على صورة عجيبة فهذه السلسلة يدخلونها من فمه ويخرجونها من دبره ويلف باقيها على جسده ولو علمنا بأنه لو وضع جزء من هذه السلسلة على جبل لذاب هذا الجبل من شدة حرها لأدركنا ما ينزل بهذا البائس من عذاب يتقلب فيه أبد الأبدين وإنما استحق هذا العذاب لأنه لم يقدم فى دنياه ما ينجيه من ذلك فقد حرم من نعمة الإيمان فلم يكن يؤمن بالله العظيم ولم يقدم خيرا لمسكين بل ولم يشارك ولو بكلمة يحث بها على توفير أدنى مستوى من الحياة لهؤلاء

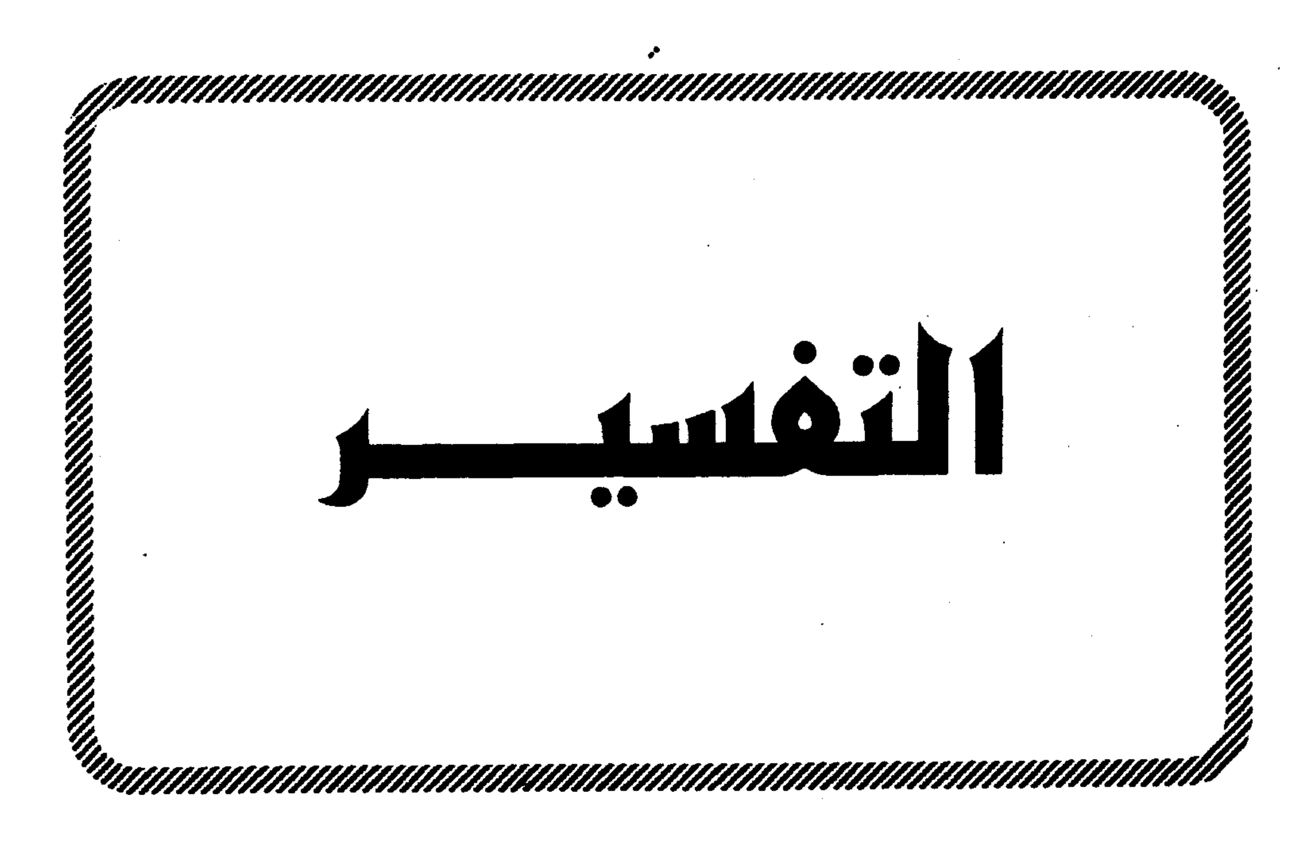
المحرومين، ولهذا جاء إلى هذه المواقف من مواقف الهول والندامة فلم يعثر على صديق وَفِيٍّ يشفع له عند الله فهو لذلك وحيد طريد شريد بائس، طعامه وشرابه من غسالة وصديد أهل النار، وهذا جزاء كل من أخطأ الطريق إلى ربه واستمرأ الباطل حتى مات على ما هو فيه من كفر وجحود.

وإذا كانت هذه النذر تساق إلى أهل مكة المكذبين لرسول الله ﷺ والمكذبين بالقرآن فعليهم أن يراجعوا أنفسهم قبل فوات الأوان وليتأملوا فى القرآن ومن نزل به ومن نزل عليه وسوف يعلمون أنه الحق يقول تعالى: ﴿فَلا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [الحاقة:٣٨-٤٠]، وماذا بقى فى الوجود يقسم به رب العزة والجلال بعد هذا ؟ إن هذا الكون منه جانب نراه وجانب لا نراه وكله دليل على وجود الخالق ووحدانيته وما اتصف به من صفات الجلال والكمال، بهذا الوجود الدال على موجوده يقسم سبحانه أن هذا القرآن الذى كذب به المكذبون قول رسول كريم هو ملك الوحى جبريل - عليه السلام - وأن هذا القرآن ليس بقول شاعر، وأين الشعر وأكاذيبه من القرآن العظيم؟ ولكن عدم الإيمان يقود إلى المماراة واختلاق الأكاذيب كما أن هذا القرآن ليس بقول كاهن وإلا فأين سجع الكهان وأباطيلهم من القرآن الذى أعجز الفصحاء والبلاغاء وجاء بالحق الذى لا مرية فيه ولكن القوم ساهون لاهون منصرفون عن تدبُّر هذا ولو تذكروا لاعتبروا واتعظوا وآمنوا به ولعلموا أن هذا القرآن تنزيل إلهى من رب العالمين، يربى الله به الإنسان روحيا كما رباه بما أفاء عليه من خيراته وبركاته فى الأرض وفى السماء ثم هذا الرسول الذى كذبتموه وقلتم بأنه افترى هذا القرآن لو عقلتم لعلمتم أن هذا الذى تقولون غير صحيح وغير ممكن لأنه لو افترى على الله فرية وتقول عليه كلمة من عنده لم يوحها الله إليه لعاقبه عقابا شديدا ولأخذه من يمينه وقطع منه عرق الحياة عرق الوتين فما يستطيع أحد منكم أن يمنع الله القوى القادر القاهر من ذلك لتعلموا أن هذا القرآن كله وحى من الله ليس فيه

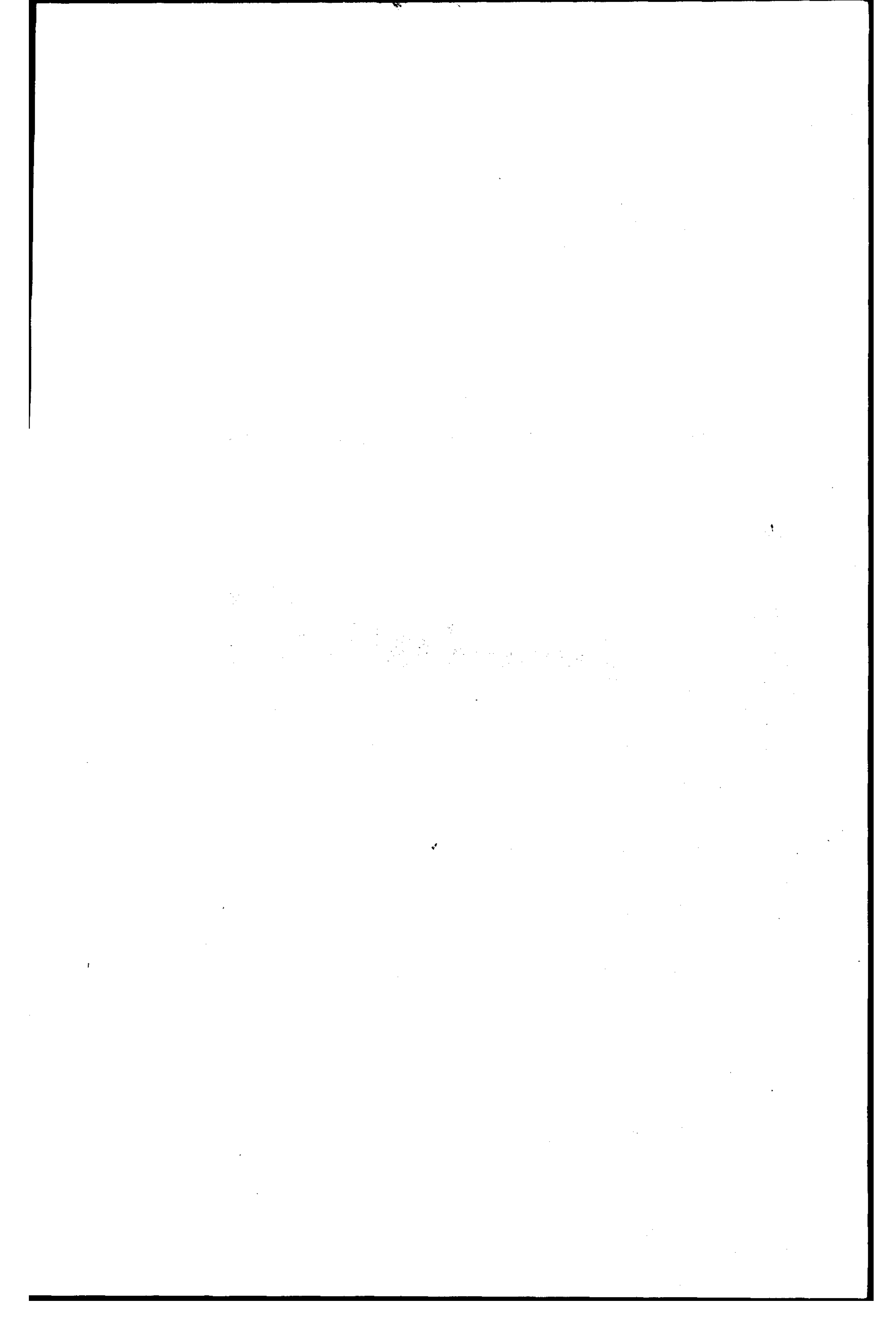
حرف واحد من عند بشر حتى ولو كان هذا هو محمد رسول الله - صلوات الله وسلامه عليه - وقد أنزل الله كتابه ليكون عظة بليغة وتذكرة عظيمة لأهل التقوى فهم المنتفعون حقا بهذا القرآن يرون فيه سعادتهم وعزتهم وهناك فريق من الناس لا تنفعهم موعظة ولا يستجيبون لدعوة الحق، هؤلاء يعلمهم الله وسوف ينزل بهم عقابه وسوف يندمون ويتحسرون على ما كانوا فيه من حرمان من خير هذا القرآن الذى هو حق اليقين.

وإذا كان هذا حال الكافرين ومآلهم وأن مردهم إلى ربهم فما عليك يا نبى الله إلا أن تواصل ما أنت فيه من تسبيح وتنزيه لمن رباك على موائد كرمه ومن له العظمة التى يتصاغر دونها العظماء ففى هذا التسبيح سلوة فؤادك وراحة قلبك وانشراح صدرك مما يُسَرِّى عنك كيد الكائدين ومكر الماكرين فسبح باسم ربك العظيم، والحمد لله رب العالمين.

* * *



التفسير



بسم الله الرحمن الرحيم

فهذا هو التفسير التحليلي لآيات سورة الحاقة حيث نتناول تلك الآيات مقسمة إلى مجموعات كل مجموعة منها تحت عنوان يلخص ما فى الآيات من معان سائلين المولى الكريم أن يجعل هذا القرآن ربيع قلوبنا ونور أبصارنا وجلاء همومنا وذهاب غمومنا بِمَنّه وكرمه وفضله فلنبدأ على بركة الله:

١ - تهويل أمر الحاقة، وما هى الحاقة؟؟

يقول الله تعالى: ﴿ الْحَاقَّةُ ۝١ مَا الْحَاقَّةُ ۝٢ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ ۝٣ ﴾

هذه سورة الحاقة بدأت بهذه الآيات فألقت فى القلوب رهبة وخوفًا، ولم تذكر تلك الآيات ما هى الحاقة إلا أنها ذكرت فيما سنقرأ من آيات السورة ما يكون حين تكون، وذكرت أنها القارعة وإن لم تصرح بذلك فقالت: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ ۝٤ ﴾، وحتى القارعة حين يتحدث عنها القرآن يسوقها فى ألفاظ فيها الكثير من التخويف والترهيب، تقرأ ذلك فى سورة تسمى بهذا الاسم حيث يقول ربنا: ﴿ الْقَارِعَةُ ۝١ مَا الْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ۝٣ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ۝٤ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ ۝٥ ﴾ إلى آخر السورة الكريمة.

فلنقف عند كلمة (الحاقة) لنعرف مدلولها فى لغتنا العربية ولماذا اختار القرآن هذه الكلمة الفريدة ليعبر بها هنا عن يوم القيامة؟

يقول ابن فارس: الحاقة: القيامة، لأنها تَحُق بكل شىء، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ۝٧١ ﴾ [الزمر: ٧١][1].

---

(١) معجم مقاييس اللغة لابن فارس (٢/ ١٧).

ويقول صاحب مختار الصحاح: الحاقة: القيامة، سميت بذلك لأن فيها حواقّ الأمور، وحاقه: خاصمه، وادعى كل واحد منهما الحق، فإذا غلبه قيل: حقّه[١].

ولابن منظور فى لسان العرب بيان جلى فى ذلك.. يقول: الحاقة: الساعة والقيامة، سميت حاقة: لأنها تحق كل إنسان من خير أو شر، قال ذلك الزجاج، وقال الفراء: سميت حاقة: لأن فيها حواقّ الأمور والثواب، وقيل القيامة حاقة لأنها تحُقّ كل محاق فى دين الله بالباطل، أى كل مجادل ومخاصم فتحُقُّه أى تغلبه وتخاصمه، من قولك: حاققتُه أُحاقه حقاقا ومُحاقة فحققتُه أحقه أى غلبته وفلجت عليه[٢]، أى: انتصرت عليه وغلبته.

وبهذا يتضح لك لماذا بدأت هذه السورة تلك البداية التى ليس لها نظير فى القرآن الكريم، فى اختيار حروفها وصياغتها هكذا: ﴿الْحَاقَّةُ ۝١ مَا الْحَاقَّةُ ۝٢ وما أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ ۝٣﴾.. وما ذلك إلا لأنها ـ كما ذكرنا فى بيان مقصود السورة وهدفها ـ إنذار بليغ من رب العالمين للمكذبين المعاندين، وبيان جلى لما سيصير إليه حالهم ومآلهم فى يوم يتحسر فيه هؤلاء ويندمون ولات ساعة مندم، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ۝٢٥ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ۝٢٦ يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ۝٢٧ مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ۝٢٨ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ ۝٢٩﴾، وكما قال: ﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ۝٤٩ وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ۝٥٠ وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ ۝٥١ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ۝٥٢﴾، فمنذ البداية فى السورة، ومن أول كلماتها ترى وصفًا موحيًا ليوم القيامة وما فيه ومن فيه، فهى فى نفسها حق وحقيقة لا بد أن تقع لأنها الختام الذى تختم به قصة الحياة والأحياء، وبدون ذلك يبقى خلق الخلائق عبثًا لا يليق بحكمة الحكيم جل وعلا، إذ كيف يعيش الناس فى هذه الدنيا بما بينهم من تفاوت فى أخلاقهم وأرزاقهم، وفيهم الظالم والمظلوم، والغنى والفقير،

(١) مختار الصحاح للرازى ص١٤٦ ، ١٤٧.

(٢) انظر: لسان العرب لابن منظور (٢/ ٩٤٣).

والقـوى فى بدنه والسـقـيم العليل، ومن ولد فـوجـد المـال والجاه والقـصـور والفراش الوثير ومـن ولد لقيطًا لا يعرف له أبًا ولا أمًا، أو ولد على فـراش الفقر والمسغـبة، وجميع هؤلاء يموتون فـهل انتهت قصتهم بهـذا الموت؟؟ لقد بقى الفصل الأخير والذى لا بد أن يكون: وهو بعثهم من قبورهم وجمعهم بين يدى خالقهم ليحاسبهم عما كان من أمـرهم فى دنياهم، فالقيامة حق لا يماري فيه إلا جاهل ومكابر، وما يكون فيها من بـعث وحشر وحساب وجنة ونار حق كذلك، ولهذا كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل يتهـجد قال: اللهم لك الحمد أنت قيم السموات والأرض ومن فـيهن، ولك الحمد لك مُلـكُ السموات والأرض ومن فـيهن، ولك الحـمـد أنت نور الـسـمـوات والأرض، ولك الحـمـد أنت ملك الـسـمـوات والأرض، ولك الحـمـد أنت الحـق، ووعـدك الحق، ولقـاؤك حق، وقولك حق، والجنة حق، والنار حق، والنبيون حق، ومحمـد ﷺ حق، والساعة حق[1].. إلى آخر ما قال ﷺ.

إنها الحـاقة التى بدت فـيهـا الحقيـقة سـافرة فليس هناك مجـال للشك أو الإنكار: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ (١٩) وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ (٢٠) وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ (٢١) لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (٢٢)﴾ [ق: ٥٠/١٩ ـ ٢٢].

﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا (١٣) هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ (١٤) أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنتُمْ لا تُبْصِرُونَ (١٥) اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٦)﴾ [الطور: ٥٢/١٣ ـ ١٦] والآيات فى هذا كثيرة.

وانظر إلى روعة السـياق القـرآنى، فإنه حين قـال: الحاقـة، اشرأبت الأعناق متسائلة: ما الحاقة؟ فجاءت الإجابة تعيد نفس السؤال: ما الحاقة؟ تعظيمًا لشأنها وتهويلاً لأمـرها وكأنه قـال: إن كل عبارة مـهمـا بلغت لا تحيط بمـعناها، وكان

---

(١) فتح البارى جـ٣/ ص٣ كتاب التهجد ـ باب التهجد بالليل.

مقتضى الظاهر أن يقول: ما هى؟ ولكنه عـدل عن هذا الضمير إلى الظاهر فقـال: ما الحاقـة، وما ذلك إلا تأكـيـدًا لهولها وتعظيـمـه، وبعد أن أعاد السـؤال ـ كما ترى ـ لم يجب عليه إنما قـال: وما أدراك ما الحاقة، فزاد الأمر تعـظيمًا وتهويلاً، لتعلم مدى مـا فى الآية من التهويل والتعـظيم لشأن يوم القيامة الـتى هى الحاقة أعد قراءة الآية بقلبك وفكرك لترى أنهـا جاءت سؤالاً لا يطلب له إجابة إنما هو استفهام تعجبى، يثيـر فى القلب والمشاعر حالة من الهلع والخوف من هذا اليوم المهول حـين تسمع المولى يتسـاءل معَجِّبـا من يسألهم قائلاً مخـاطبًا رسوله ﷺ وكل من يتوجه إليه الخطاب: وما أدراك ما الحاقة، أى: أىُّ شىء أعلمك ما هى، فـهى خارجـة عن علوم المخلوقـات، على مـعنى أن أعظم شأنهـا ومدى هولهـا وشدتهـا بحيث لا يكاد تبلغـه دراية أحد ولا وهمه، وكـيفمـا قدرت حالهـا فهى وراء ذلك وأعظم وأعظم فلا يتسنى الإعلام بها[1]. والفعل «دَرَى» فسره بعضهم بعلم، ولكن القرآن حين يختار كلمة ليعـبر بها إنما يريد ما تعنيه هذه الكلمة، ولو كان يريد الكلمة التى ذكرها المفسرون لذكرها، فما يذكرونه إذًا إنما هو لتقريب المعنى وتوضيحه، وعلى هذا فلا بد أن نبحث عن المعنى الأصلى لكلمة (درى) وهل هناك فرق بين: أدراك ويُدريك؟ لنعرف: لماذا اخـتار هذه الكلمة هنا، يقول الراغب الأصفـهانى فى مفـردات القرآن: الدراية: المعـرفة المدركَـةُ بضرب من الخَتْل [والخـتْل: الخداع] والدَّرية: لمـا يتعلم عليه الطعن، ولـلناقة التى ينصبـها الصائد فيـستتر من ورائها فيـرميه[2]، فليست الدراية مجرد المـعرفة والعلم حتى نقول بأن: وما أدراك: أى مـا أعلمك، وإنما توحى الكلمة بمعـرفة وعلم يحصل عليـه صاحـبه ببـذل كل ما أوتى من حـيلة ودهاء. شأن من يريد اصطـياد فريـسة فيستتر خلف ناقة أو شىء حتى لا تراه الفريسة فيتمكن من اصطيادها، فهل يمكن أن تعرف مـا يكون فى القـيامة مـن أهوال على وجه الحـقيـقة؟ ما هى وسـائلك

---

(١) انظر: روح المعانى للألوسى (٢٩/ ٤٠).

(٢) انظر: مفردات ألفاظ القرآن: للراغب الأصفهانى ص١٧٠.

للوصول لذلك؟ أى شيء يستطيع أن يكشف لك هذا الأمر العظيم؟ لن يكشف لك هذا إلا العليم الخبير، ولن تنجلى لك حقيقتها إلا حين يكشف عنك غطاؤك وترى هذا كله بعينيك لا يحجبك عنه حجاب، يقول سفيان بن عيينة: كل ما فى القرآن من قوله: وما أدراك فقد أدراه، وكل ما فيه وما يدريك فلم يُدره، وقال يحيى بن سلام: بلغنى أن كل شيء فى القرآن وما أدراك فقد أدراه إياه وعلمه، وكل شيء قال فيه وما يدريك فلم يخبره به[1]، ولذلك قال الراغب فى مفرداته: كل موضع ذكر فى القرآن: أدراك فقد عقَّب ببيانه نحو: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَاهِيَهْ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةٌ ۝١١﴾ [القارعة: ١٠ ، ١١]، ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ۝٢ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣﴾ [القدر: ٢ ، ٣]، ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ ۝٣﴾ [الحاقة: ٣]، ﴿ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ۝١٨﴾ [الانفطار: ١٨]، وكل موضع ذكر فيه «وما يدريك» لم يعقبه بذلك، نحو: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ ۝٣﴾ [عبس: ٣]، ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ۝١٧﴾ [الشورى: ١٧][2].

فحين قال: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ﴾ علمنا أنه سيذكر لنا من أمرها ما يقرب حقيقتها، وما يبين بعض أهوالها وأحوالها، وما يكون من أحوال من فيها من السعداء والأشقياء.

٢ - عاقبة ثمود وعاد فى الدنيا، ولماذا قدَّم ثمود على عاد؟ وهل هناك فرق بين الحاقة والقيامة والقارعة؟؟

يقول الله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ ۝٤ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ۝٥ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ ۝٨﴾ [القارعة: ٤ ـ ٨].

(١) انظر: فتح القدير: للإمام الشوكانى (٥/ ٢٧٩ ، ٤٧٢).
(٢) انظر: معجم مفردات القرآن ص١٧١.

هـذه الآيات ومـا بـعـدها جـاءت توضح مـا يكون لمـن كـذب بهـذا اليـوم العصيب من دمار وهلاك فى الدنيا من بعث وحساب وجنة ونار، وقبل أن نبدأ فى بيان ما حل بالمكذبين المـعاندين وكيف عبَّرت عنه كلمـات الآيات نتوقف قليلاً لنعرف الفرق بين تسمية الحاقة بالقيامة، والقارعة وهل هناك فرق بين هذه الكلمات:

عرفنا لمـاذا سمى الله هذا اليوم بالحاقـة، وقد فسره المفـسرون وبعض أهل اللغة بأنه يوم القـيامة، ولكن يوم القـيامة لوحظ فـيه جانب آخـر وهوأن من ماتوا رقودٌ إلى أن يُنفَخ فى الصور نفخة البعث فإذا هم قيام ينظرون، وهذا وصف آخر لهذا اليوم وهو أنه بأهواله العظـيمة يقرع القلوب قرعًا رهيـبًا فتقوم فَزِعـةً خائفة، بل يقرع الكون كله بما يكـون فيه من أحداث جسام، وهذا مـا تلمحه فى إطلاق القارعة ومن تقرعه، فهذا الإطلاق يفيـد العموم فهى مثلاً تقرع القلوب بالأهوال، والسـمـاء بالانشـقـاق والانفطار، والأرض والجبـال بالدك والنسف، والنجـوم بالطمس والانكدار. وهكـذا، والقَرْعُ ضَـربُ شىء بشىء بقـوة وشدة، وقـد ورد هذا الوصف مرة واحدة لما ينزل بالكافرين فى الدنيا من عذاب شديد ينبههم من غفلتهم كـما قال ـ تعالى ـ: ﴿ وَلا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ (٣١) ﴾ [الرعد: ١٣/ ٣١]. ثم ورد بعد ذلك وصـفًا لمـا يكون عليه يوم القيـامة هنا فى الحـاقة وفى سورة تسـمى بذلك وهى سورة القارعة.. وإذا كـانت القارعة فى مـعناها اللغوى ضرب شىء بشـىء أو ضرب شىء على شىء، ومن ذلك قـرعته بالمـقرعـة فإن الأمـر هنا ليس مـجرد ضـرب شىء بشىء أو على شىء إنـما هو انهيـار للنظام الكونى وتدمير ومحو لمعالم هذه الحياة الدنيا، وصيحة رهيبة فزعة تنهد وتنخلع لها القلوب، فـيقـوم الناس لرب العالمين، يـقول الكافرون: يا ويلنا من بـعثنا من مرقدنا؟ فتـأتيهم الإجابة: هذا ما وعد الرحمن وصدق الـمرسلون، أما المؤمنون المصدقـون بذلك فهم كما قـال ـ تعالى ـ: ﴿ لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (١٠٣) ﴾ [الأنبياء: ١٠٣]، وكـان على من

أرسل الله إليهم رسولاً يعرفون صدقه وأمانته أن يؤمنوا بما جاءهم به وبخاصة وأن الرسول يأتى بما يثبت صدقه من الأمر الخارق للعادة الذى يظهره الله على يديه ويتحدى به من بعث إليهم أن يأتوا بمثله فلا يستطيعه منهم أحد، ولكن تاريخ الرسالات يثبت أن الأكثرية لم تؤمن ولم تصدق، فكانت عاقبة المكذبين الإهلاك والتدمير، ﴿فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٠)﴾ [العنكبوت: ٢٩/ ٤٠].

وقد ذكر الله فى الحاقة من هؤلاء المكذبين قوم هود وصالح كما ذكر فرعون وقوم لوط وقوم نوح ليكون فى ذلك عظة وعبرة وإنذار لمن كذبوا برسول الله محمد ﷺ ودعوة لهم ليؤمنوا قبل أن ينزل بهم ما نزل بهذه الأمم، ولكن لماذا قدَّم ثمود على عاد مع أن هذا على غير الترتيب الزمنى، كما أخر الحديث عن نوح مع أنه قبل هؤلاء جميعًا؟.

لو تأملنا فى آيات القرآن التى تناولت قصص هؤلاء الأنبياء لوجدنا أن القرآن يذكرهم وفق الترتيب الزمنى الذى أرسلوا فيه أحيانًا وأحيانًا لا يلتزم بهذا الترتيب، ويطيل الحديث عنهم فى مواضع ويختصر فى مواضع أخرى.

فبدأت فى الأعراف بنوح ثم عاد ثم ثمود وهكذا وفق الترتيب الزمنى وبشىء من الإطالة فى الحديث عنهم، ونرى مثالاً للثانى فيما بين يديك من الآيات فقد قدمت لقطات قصيرة من قصة كل أمة من هذه الأمم فلم تذكر أسماء الأنبياء إنما اكتفت بذكر من أرسلوا إليهم، واختصرت الحديث ربما فى كلمة واحدة وإشارة سريعة، كما نرى فى الإشارة إلى فرعون وما كان من أمره وقوم لوط وما حل بهم فتقول: ﴿وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ (٩) فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً (١٠)﴾، وهذا كله لأن المقصود هو تحقيق الهدف من السورة وتوجيه بلاغ قوى مؤثر لمن وقفوا فى وجه دعوة

الحق، يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجًا، ولهذا لم تلتزم الآيات بتقديم هذه الأمم والحديث عنها وفق التسلسل التاريخى فبدأت بثمود، وختمت بنوح وقومه ويمكن أن نقول بأن حرف العطف الذى عطفت به هذه القصص هو الواو، وهى لا تفيد ترتيبًا ولا تعقيبًا إنما هى لمطلق الجمع، فكيفما كان الحديث تقديمًا أو تأخيرًا فلا يتعلق بذلك غرض، ولكن القرآن مع ذلك إذا قدم قصة على قصة أو أمرًا على أمر وإن كان العطف أو ذكر ذلك بالواو أو بدونها كما ترى فى الحديث عن سفينة نوح بعد الحديث عن فرعون ومن قبله، إنما يفعل ذلك لأهداف تتعلق بالسورة وما سيقَتْ من أجله آياتها، وعلى هذا نستطيع أن ندرك لماذا بدأ بثمود قوم صالح قبل عاد قوم هود، مع أن هودًا قبل صالح، وهما قبل نوح، فهذا هود يقول لقومه: ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [الأعراف: ٧/ ٦٩].

وهذا صالح يقول لثمود: ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا ﴾ [الأعراف: ٧/ ٧٤].

وهذا شعيب يقول لقومه: ﴿ وَيَا قَوْمِ لا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ ﴾ [هود: ١١/ ٨٩].

ولنعد إلى سؤالنا لماذا لم يلتزم القرآن فى الحاقة بهذا الترتيب الزمنى فى إرسال الرسل وبدأ بثمود قوم صالح..؟

إذا كنا قد عرفنا أن المقصود هو توجيه إنذار لمن كذبوا رسول الله ﷺ، فإن هذا يتحقق بلفت الأنظار إلى ما حل بأمة قريبة من ديارهم ومساكنهم، وديار ثمود أقرب من ديار عاد، فإن ديار ثمود كانت بالحجر بين الشام والحجاز، أما ديار عاد فكانت بالأحقاف، بيّن عمان وحضرموت. ولذلك سمى الله ثمود بأصحاب الحجر. قال: ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [الحجر: ٨٠]، وقال فى عاد: ﴿ وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالأَحْقَافِ ﴾، [الأحقاف: ٢١]

وسمى السورة التى منها هذه الآية بالأحقاف. ولهذا ذكر القرآن قصة ثمود ونبيها صالحًا أكثر مما ذكر عادًا ونبيها هودًا، فذكر ثمود ستًا وعشرين مرة وصالحًا أربعًا وأربعين مرة ولكنه ذكر عادًا عشرين مرة وهودًا عشر مرات، وأحيانًا يكتفى فى التذكير بذكر قوم صالح كما نرى فى الإسراء: ﴿ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا ﴾ [الإسراء: ١٧/ ٥٩] وفى النمل، وفى الشمس.. وهناك سبب آخر لتقديم الحديث عنهم وهو أن الله أهلكهم بالصيحة وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية. والصيحة أشبه بصيحة النفخ فى الصور، والحديث فى الحاقة عن يوم القيامة بما فيه من صيحة البعث التى تقرع أصحاب القبور فإذا هم قيام ينظرون.

فانظر كيف عبَّرت الكلمات عما حل بعاد وثمود. يقول ـ تعالى ـ: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ ﴿٤﴾ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ ﴾.

والإهلاك هو: إعدام الشىء وإفناؤه، فهؤلاء أُهْلكُوا أى نزل بهم من العذاب ما أبادهم وأفناهم، وتأكيدًا لقوة هذا الإفناء يأتى نظمَ الآية هكذا: يذكر ثمود دون أن يذكر كلمة قوم صالح، إنما اكتفى بالإشارة السريعة لهم والتى جمعها فى قوله: فأما ثمود، واختار كلمة الإهلاك بكل ما فيها من قوة الإله القوى القادر وعجز هؤلاء المتجبرين الظالمين، وكيف أن الله بقوته وعزته أبادهم وأفناهم ويساق هذا المعنى ويُصاغ فى صيغة فعل ماضٍ مبنى للمجهول لأن المقام هو رسم صورة الإهلاك الذى حل بثمود دون النظر إلى الفاعل وإن كان معلومًا لا يخفى على أحد فإنه رب العزة والجلال، وفى بيان ما أهلكهم به أو فى بيان سببه يأتى قوله: بالطاغية، لنقف أمام هذه الكلمة فى اختيار حروفها وفى إطلاقها، وفى معناها وما تلقيه من جو الترهيب والتخويف. فتأتى الطاء والغين وحرف العلة مختومًا بالتاء التى نقف عليها بالهاء هكذا: بالطاغيه.. ليعبِّر كل حرف فيها عن القوة والشدة، وبالوقف على الهاء نشعر بما فى هذه الكلمة من قوة كأنها البحر الذى طغى وغطى ما حوله فأهلكه أو الجبل الذى سقط على من يحتمى به فأباده

أو الصاعقة التى فاجأت قومًا فلم تترك لهم أثرًا. ولم يذكر لنا القرآن الموصوف بالطاغية، فهل هى الصيحة التى جاوزت الحد فى الشدة فرجفت منها الأرض والقلوب، وقد ذكر فى الأعراف أنهم أهلكوا بالرجفة فقال: ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [الأعراف: ٧/ ٧٨]، وفى «هود» ذكر أنهم أهلكوا بالصيحة فقال: ﴿ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [هود: ١١/ ٦٧، ٦٨]، وفى «فصلت» أنهم أهلكوا بالصاعقة: ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ ﴾، إلى أن يقول: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [فصلت: ٤١/ ١٣، ١٧]، والقرآن أحيانًا يذكر السبب القريب وأحيانًا يذكر السبب البعيد، فالصاعقة هى الصيحة التى صاحها جبريل فى قوم صالح فارتجفت بهم الأرض وتزلزلت وصعقوا وأبيدوا وأهلكوا بالطاغية، قال ـ تعالى ـ: ﴿ فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ ﴾ [القمر: ٥٤/ ٢٩ ـ ٣١]، أو أن الطاغية مصدر كالعافية والداهية أي أهلكوا بسبب طغيانهم، والطغيان سبب زوال الأمم وهلاك الشعوب، وتكذيب المرسلين، قال ـ تعالى ـ: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ﴿١١﴾ ﴾ [الشمس: ٩١/ ١١] أى بسبب طغيانها وافتتانها بما أفاء الله عليها، ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ ﴾ [الإسراء: ١٧/ ١٦]، أى: أمرنا مترفيها بطاعتنا وطاعة رسلنا ففسقوا فيها فحق عليها القول، أو أن هذا وصف لطاغية ثمود الذى عقر الناقة، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ﴿١١﴾ إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴿١٤﴾ وَلا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴿١٥﴾ ﴾ [الشمس: ٩١/ ١١ ـ ١٥]، كما روى الإمام

أحمد بسنده عن عبد الله بن زمعة قال: خطب رسول الله ﷺ فذكر الناقة وذكر الذى عقرها فقال: ﴿إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا﴾، انبعث رجل عارم (أى شديد) عزيز منيع فى رهطه مثلُ أبى زمعة» ومع أنه هو الذى انبرى لهذه الفعلة الشنيعة وعقر الناقة إلا أن الله أسند الفعل إليهم جميعًا فقال: ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ [الأعراف: ٧/ ٧٧]، لأنهم علموا بفعله ورضوا به، وهنا تكمن خطورة السكوت عن المنكر مع الرضا به، ولذلك جاء فى الحديث: «من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان»، وفى رواية: «وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل». والرأى الأول وهو أن الطاغية هى صيحة جبريل التى زلزلت الأرض تحت أقدامهم فصعقوا جميعًا وهلكوا هذا هو الظاهر.

وإذا كانت قصة ثمود قد جُمعت فى آية واحدة هى قوله: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ﴾، فإن قصة عاد قد جاءت فى آيات ثلاثة هى قوله: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنْ بَاقِيَةٍ ۝﴾، وفى هذه الآيات نرى أنه ذكر عادًا ولم يذكر نبيها هودًا كما ذكر هذا فى سور أخرى وهذا لأن المقام هنا ليس حديثًا مستفيضًا عن هود ودعوته إنما هذه إشارات سريعة تخترق حواجز القلوب والمشاعر والأحاسيس لتلقى فيها هذا الترهيب الشديد، ولهذا أتى بكلمة: ﴿أُهلكوا﴾، فاختار كلمة الإهلاك بكل ما تعنيه، وجاء بها فعلاً ماضيًا مبنيًا للمجهول كما قال فى ثمود لتحقيق هذا الهدف، وفى بيان ما أهلكهم به يأتى قوله: ﴿بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ إلى قوله: ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنْ بَاقِيَةٍ﴾، فأتى بكلمة: ريح، وهى نكرة فأفادت التهويل ووصفها بما بعدها مما زادها تهويلاً وشدة، فوصفها بأنها «صرصر» وحروف الكلمة تحمل القوة والشدة، ومعناها الباردة شديدة الصوت بلا مطر، قال ابن قتيبة: صرصر: يجوز أن يكون من الصر وهو البرد، وأن يكون من صَرَّ

الباب، وأن يكون من الصرَّة وهى الصيحة ومنه: فأقبلت امرأته فى صرة»[١] كما وصفها بالعتو، وهو وصف يرد فى القرآن للمكذبين الذين عتوا عن أمر ربهم أما أن يكون وصفًا للعذاب الذى نزل بهم فلم يرد إلا هنا فى الحاقة وصفًا لريح عاد، والعتو هو التمرد الذى تجاوز الحد فى الاستكبار، وهذه الريح التى سلطها الله على عاد تجاوزت كل الحدود، وانطلقت بأمر الله لا يقف دونها شىء، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أرسل الله من نسمة من ريح إلا بمكيال، ولا قطرة من ماء إلا بمكيال إلا يوم عاد ويوم نوح، فإن الماء يوم نوح طغى على الخزان فلم يكن لهم عليه سبيل ـ ثم قرأ ـ: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ﴾، والريح لما كان يوم عاد عتت على الخزان فلم يكن لهم عليها سبيل، ثم قرأ: ﴿بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾[٢]، ولهذا لم يستطيعوا الهرب منها بحيلة من استتار ببناء أو لياذ بجبل أو اختفاء فى حفرة فقد كانت تنزعهم من كل مكان وتهلكهم، قال ـ تعالى ـ: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (١٨) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ (١٩) تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ (٢٠) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (٢١)﴾ [القمر: ٥٤/ ١٨ ـ ٢١].

وقال: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ (٤١) مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ (٤٢)﴾ [الذاريات: ٥١/ ٤١ ـ ٤٢]، وقال: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٤) تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (٢٥)﴾ [الأحقاف: ٤٦/ ٢٤ ـ ٢٥]، وقال: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (١٥) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ

(١) الفتوحات الإلهية: للجمل (٤/ ٣٦).

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبى (١٧/ ٢٥٩).

أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [فصلت: ٤١/ ١٥، ١٦]. وفى هذه الآيات يبدو لك معنى وصف الريح بأنها عاتية، وهو وصف للعقلاء من الناس، أما أن يكون هذا وصفًا للريح، فهو تصوير لها بإنسان عاتٍ متمرد لا يستجيب لنصح ولا موعظة، مما يبين مدى ما كانت عليه تلك الريح من انفلات وانطلاق وزمجرة ولم يكن لخزانها عليها من سبيل.

وكما يقول الإمام البقاعى: وصف الله ـ سبحانه ـ الريح فى الآية بصفتين: صرصر عاتية، وأن الصرصر هى الريح المزمجرة بصوتها المهلكة ببردها، والعاتية: المجاوزة للحد من شدة عصفها وعظمة قصفها، تفعل أفعال المستكبر الذى لا يبالى بشىء فلم يستطع خزانها ضبطها، ولم يملكْ المعذَّب بها ردَّها ولا ربطها، بل كانت تنزعهم من مكانهم التى احتفروها ومصانعهم التى أتقنوها واختاروها فتهلكهم[1].

وهذه صفة أخرى لتلك الريح تراها فى قوله ـ تعالى ـ: ﴿سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما﴾.. وهذه الصفة تأتى إجابة عن سؤال مقتضاه: هل هذه الريح القوية العاتية انطلقت مدمرة مهلكة لهؤلاء القوم المجرمين بنفسها، فهذا من وحى الطبيعة كما يقول ويعتقد الجاهلون؟ فكانت الإجابة: لا، إنها مقهورة بقهر الله لها، مأمورة تنفذ ما يريد القوى القاهر منها، ولذلك قال: سخرها عليهم، أى سلطها ومكنها منهم وفق ما أراد من إهلاكهم، وكما قال: ﴿ تدمر كل شىء بأمر ربها ﴾، وقدرة الله لا يعجزها شىء فالكائنات كلها مقهورة ميسرة مسخرة بأمره، ولعلنا سنلمح مثل هذه القدرة الربانية فى قصة نوح حيث صدرت الأوامر الإلهية: بإغراق قوم نوح كما قال ـ تعالى ـ: ﴿ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ ﴾ [القمر: ٥٤/ ١١، ١٢]، وصدرت الأوامر بالكف والتوقف بعد

(١) نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور: للإمام البقاعى (٨/ ١٢٢).

إهلاك هؤلاء المكذبين، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤٤)﴾ [هود: ١١/ ٤٤]، والله الذى قهر المخلوقات بقدرته، وسخرها لمشيئته، يجعل هذه المخلوقات فى خدمة الإنسان لينتفع بها فى أداء مهمة الخلافة فى الأرض والآيات فى هذا كثيرة، تقرأ منها فى سورة إبراهيم قول الله ـ تعالى ـ: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ (٣٢) وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (٣٣) وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (٣٤)﴾ [إبراهيم: ١٤/ ٣٢ ـ ٣٤]، ويقول ـ تعالى ـ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾ [الحج: ٢٢/ ٦٥]، وهذه الريح مع شدتها وقوتها يسخرها الله لنبى من أنبيائه هو سليمان ـ عليه السلام ـ فيقول: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ (٣٦)﴾ [ص: ٣٨/ ٣٦]، ولكنه قد يجعل هذه النعمة نقمة وعذابًا يسلطه على من عتا على هدْيه، واستكبر على شرعه وعاث فى الأرض فسادًا ولم يستجب لنداء المرسلين، وهذا ما نراه فى قوله: «سخرها عليهم»، لا لهم. كما قال ـ تعالى ـ: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ (٤١) مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلاَّ جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ (٤٢)﴾ [الذاريات: ٥١/ ٤١، ٤٢]، وقال: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾ [فصلت: ٤١/ ١٦]، وقال: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (١٨) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ (١٩)﴾ [القمر: ٥٤/ ١٨ ، ١٩]، فسبحان الإله القوى القادر الذى لا يعجزه شىء فى الأرض ولا فى السماء، والذى سخر الريح على عاد فدمرهم بها تدميرًا رهيبًا عجيبًا، وسلطها عليهم فى مدة من الأيام والليالى بدأت بأمره وانتهت بأمره إذ

قال: ﴿ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا ﴾.

فذكر الأيام والليالى التى تم إهلاكهم فيها ولم يذكر ذلك فيما كان من إهلاكه لأمم أخرى كقوم نوح وثمود ولوط وشعيب وغيرهم، توضيحًا لقدرته على هذا الشىء.

وتأمل معى ترتيب هذه الآية وما جاء فيها، فأنت ترى اختيار العدد فى الليالى سبعًا، والسبع أجمع العدد، ومنه ما تراه فى القرآن من ذكر هذا العدد أربعًا وعشرين مرة فالسموات سبع والأرضون سبع والمثانى من القرآن سبع وأبواب جهنم سبع، وهكذا فيما تراه من أيام الأسبوع والاحتفال بيوم السابع للمولود، وهكذا وبدأ بالليالى مع أن بداية العذاب كانت من صبيحة يوم الأربعاء لثمان بقين من شوال إلى غروب شمس آخر يوم من الشهر، ولهذا ترى زيادة عدد الأيام على عدد الليالى، وإنما بدأ بالليالى لأن وقوع البلاء فى الليل أعظم وأشد وأنكى، والآيات كما ذكرنا فى هدفها تُساق لتلقى الرعب فى قلوب المعاندين لرسول الله محمد ﷺ ببيان ما حل بغيرهم من الأمم، وفى ذكر هذه المدة ما يبين أن هذه الريح كانت متتابعة لم تتوقف لحظة ولم تمهلهم ليلتقطوا أنفاسهم، وهذا بعض ما يفهم من قوله: حسومًا، فإن معناها أنها متتابعة متوالية، حتى حسمتهم واستأصلتهم ولهذا سمى السيف حسامًا لأنه يحسم العدو ويقضى عليه، ومن يُعالِج بالكى بالنار يقال له الحاسم لأنه يوالى ويتابع الكى على الداء مرة بعد أخرى حتى ينحسم، وقال المبرد: هو من قولك: حسمت الشىء إذا قطعتُه وفصلتُه عن غيره. وقال ابن زيد: حسمَتْهُم فلم تُبقِ منهم أحدًا، وروى عنه أنه قال: حَسَمتْ الأيام والليالى حتى استوفتها لأنها بدأت بطلوع الشمس من أول يوم وانقطعت بغروب الشمس من آخر يوم[1].

وتصويرًا لما آل إليه حالهم يأتى قوله: ﴿ فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ ﴾ ليعرض أمامك صورة تراها لهم تحمل النكال

(١) انظر: فتح القدير للإمام الشوكانى (٥/ ٢٨٠).

والهلاك، فقوله: ﴿فَتَرَى﴾ خطاب فَرْضِيٌّ لرسول الله ﷺ أو لكل من يتأتى له الخطاب أى لو كنت حاضرًا هناك لرأيت هذا المشهد لقوم تناثرت أجسادهم وانفصلت عنهم رءوسهم، ولم تغن عنهم قوتهم من طول ومن عرض كأنهم أعجاز نخل خاوية.. واختيار لفظ القوم دون الضمير كما هو مقتضى السياق بأن يقول: فتراهم، ليرشدنا إلى أنهم مع ما كانوا عليه من عزيمة وقوة واجتماع نزل بهم عذاب الله فلم يترك منهم أحدًا حتى لقد روى أن عجوزًا منهم توارت فى سرب هربًا من الهلاك فانتزعتها الريح فى اليوم الثامن وأهلكتها. يقول ابن فارس: «القاف والواو والميم: أصلان صحيحان يدل أحدهما على جماعة ناس، وربما استعير فى غيرهم والآخر على انتصاب وعزم»[1]، والقوم: الجماعة من الرجال والنساء جميعًا. وقيل هو للرجال خاصة، ويقوى ذلك قوله ـ تعالى ـ: ﴿لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾ [الحجرات: ٤٩/١١] وقوم كل رجل: شيعته وعشيرته[2]، فالإظهار فى موضع الإضمار والتعبير بكلمة «القوم» يلقى ألوانًا من المعانى والظلال، ليقول لك: بأن هؤلاء جماعة، وليس مجرد أفراد، وأنهم بجماعتهم يمثلون أمة لها من القوة والبأس ما لها، وأن هذه القوة كان يمكن أن تكون عونًا «لهُود» على أداء رسالته بالالتفاف حول دعوته ونصرته، وبخاصة وأنها دعوة لا يطلب عليها أجرًا فى الدنيا إلا من الله ـ عز وجل ـ، وفيها سعادتهم بما أتى به من دعوة الإيمان بالله الواحد الأحد، والانضواء تحت راية ما أتى به من الله من نظام إلهى فيه عزتهم وقوتهم، فلما جعلوا اجتماعهم إفسادًا، وقوتهم بطشًا وعنادًا، سلط الله عليهم الريح العقيم فى أيام نحسات فأبادتهم ولم تبق منهم أحدًا، أما قوله: «فيها» فى قوله: ﴿فترى القوم فيها صرعى﴾ فإن حرف الجر «فى» كما يقول سيبويه: للوعاء، تقول: هو فى الجراب، وفى الكيس وهو

(١) معجم مقاييس اللغة لابن فارس (٥/ ٤٣).

(٢) انظر: لسان العرب لابن منظور (٥/ ٣٧٨٦).

في بطن أمه، وكذلك هو في الْغُلِّ، جعله إذا أدخله فيه كالوعاء، وكذلك هو في القبة وفي الدار[١].

وهذا يدلك على مدى الإحاطة التي عمت القوم عَبْر الأيام المشئومة والليالي السبع بما في الأيام والليالي من عواصف قاصمة وبرد مهلك. فأنت لو كنت حاضراً لشاهدت القوم في هذه الأيام والليالي، أو في مهب الريح أو في ديارهم صرعى، ولا مانع من هذه المعاني الثلاثة فهم في ديارهم ومنازلهم وما شيدوه من مبان قوية، هبت عليهم الريح الصرصر العاتية لمدة سبع ليال وثمانية أيام حسومًا، حتى استأصلتهم. وهذا الاستئصال يعبر عنه بقوله: صرعى، وهي كلمة معبرة قوية الدلالة على معناها في هذا السياق، ويفسرها المفسرون بهلكى أو موتي، ولكن تبقى الكلمة أكبر من هذا الذي ذكروه، فإنها تعني أن الموت والهلاك الذي حل بهم إنما كان بعد معاناة وآلام ومحاولات للنجاة شأن من حل بهم مثل هذا من زلزال أو فيضان نهر، أو مطر، أو حريق، فإن كل واحد يحاول أن ينجو بنفسه فإن لحقه ما حل بدياره فصرعه وأفناه، لا يقال بأن هذا مجرد موت، إنما هو موت سبقه ألم وآلام وأحداث جسام، والأصل في الصاد والراء والعين (صرع) أنها تدل على سقوط شيء إلى الأرض نتج عن مراس اثنين أي محاولة كل واحد أن يغلب الآخر ومن هنا عرفنا كلمة المصارعة، ومن يقع فيها يقال عنه صريع، ومن هنا أتت قوة التعبير القرآني عما أصاب عادًا في قول الله القوي القادر: فترى القوم فيها صرعى.

وزاد هذا التعبير قوة هذا التشبيه في تلك العبارة الموحية، ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾، وفي سورة القمر يقول: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾، والأَعْجَازُ جمع عَجُز، والعَجُز: مؤخرة الشيء، فانظر إلى نخلة باسقة ذهبت فروعها وقطعت رءوسها وبقيت بقيتها، فانقطع عنها الماء فأصابها العطب وخوت فهي فارغة من داخلها، وهذه هي الصورة التي صار إليها القوم، فقد كانوا في طولهم

(١) لسان العرب: لابن منظور (٥/٣٥٠٥).

وضخامة أجسامهم أشبه بالنخيل، حين نزل بها أمر الله وأصابها العطب جفت رءوسها ويبست خضرتها وما هو إلا وقت قصير حتى سقطت، وبقيت الجذوع خاويةً، سرعان ما تساقطت، وفي هذا التشبيه ما يرشدك إلى قوتهم وضخامتهم، وقد قال ـ تعالى ـ: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝٧ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ۝٨﴾ [الفجر: ٨/٦ ـ ٨]، وهذا مما جعلهم يغترون بقوتهم كما قال ـ تعالى ـ: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ۝١٥﴾ [فصلت: ٤١/ ١٥]، وقد ذكرهم نبيهم «هود» بهذه النعمة حين قال فيما ذكره الله عنهم: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٦٩﴾ [الأعراف: ٧/ ٦٩] لكن هذه الأجسام الطوال كانت كالطبل الأجوف خاويةً من الإيمان، فلم يورق لها عود، ولم يظهر لها ثمر، ولم يُشرق فى داخلها نور الحق، ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ۝٤٠﴾ [النور: ٢٤/ ٤٠]، وكم من أناس تراهم على هذا الحال جمالاً فى الوجوه وظلامًا فى القلوب وعناية بالأجساد وفسادًا فى السلوك:

جمال الوجه مع قُبح النفوس ٭ كقنديل على قبر المجوس

وقد قال الشاعر:

أقبل على النفس واستكمل فضائلها ٭ فأنت بالنفس لا بالجسم إنسان

ولذلك قال يحيى بن سلام: إنما قال «خاوية» لأن أبدانهم خوت من أرواحهم مثل النخلة الخاوية[1] فهذا وصف لهم بعد أن صاروا صرعى، تراهم كجذوع النخل اجتثت من أصولها وسقطت من طولها بعد أن ذهبت رءوسها وبقيت أعجازها، فيا له من تشبيه لحال ما صار إليه القوم من تمزق، وهلاك!!

---

(١) انظر: فتح القدير: للشوكانى (٥/ ٢٨٠)، وروح المعانى للألوسى (٢٩/ ٤٢).

ولعلك تتساءل: هل بعد هذا الذى نزل بهم بقى منهم أحد؟ وهنا يجاب عليك بهذا السؤال: فهل ترى لهم من باقية؟ وهو سؤال يتوجه لكل من يصح أن يتوجه له سؤال، وبخاصة من لهم إلمام بتاريخ الأمم فى قيامها وبقائها وزوالها، سؤال يسدل الستار على مشهد أمة بادت وهلكت بعد أن نجى الله هودًا ومن آمن معه، لتعرف قدرة الله على إهلاك من أراد وإنجاء من أحب ممن آمن به، وأن الأمر ليس ظاهرة من ظواهر الطبيعة أدت إلى تغيرات مناخية جعلت عاصفة تهب على ديار قوم فيهلك فى هذه العاصفة من يهلك هكذا دون تدبير إلهى، ولكنها الخطة الإلهية التى سارت مسارها حتى بلغت غايتها، ولذلك حين وصل الأمر إلى العناد والتحدى وقالوا لنبيهم: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ۝٧٠﴾ قال: ﴿قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ ۝٧١﴾، فماذا كان؟ قال ـ تعالى ـ: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ۝٧٢﴾ [الأعراف: ٧/ ٧٠ ـ ٧٢]، وقال: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ۝٥٨﴾ [هود: ١١/ ٥٨].

فانظر وتأمل وابحث ونقّب، فهل ترى لهم أدنى أثر؟ ولعلك تلاحظ معى ما يفيده تقديم «لَهُمْ» على «باقية» فهذا التقديم يدل على التخصيص. أى بقية خاصة بهم، وأتى «بمن» إمعانًا وإغراقًا فى نفى أن تكون لعاد بقية أو أثر. وأتى بالهاء فى قوله: باقية: مبالغة فى البقاء المنفى عنهم، أى فهل ترى لهم من بقاء أو من نفس باقية، وهذه المعانى كلها توضع فى صيغة سؤال إنكارى تعجبى، يثير العجب من هذا الذى حدث لهم. وتتوجه أداة الاستفهام للفعل المضارع: ترى، لينقلك إلى مشهد حى عبر الزمان والمكان، فما أعظم هذا القرآن الذى أعجز الفصحاء والبلغاء.

* * *

٣ - مصيرُ فرعون ومن قبله والمؤتفكات

يقول الله تعالى: ﴿وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ ﴿٩﴾ فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴿١٠﴾﴾

فى هذه الكلمات القليلة يجمع الله عدة أمم وقع بها أمر الله، بعد أن حدثنا عن عاد وثمود، وبين ما نزل بهم، وهذه اللقطات من حياة تلك الأمم تجتمع لتكون إشارات سريعة توقظ المشاعر والأحاسيس إلى أن عذاب الله دائمًا ينتظر كل من كذب المرسلين، ومن جحد آيات الله، فلنتدبر هذه اللقطات السريعة من خلال الآيتين: ترى فرعون ومن قَبْلَهُ [من الأمم الكافرة] أو ومن قِبَلَه [أى من كان على شاكلته ممن شايعه وسار بسيرته] كما ترى قوم لوط وما حل بهم، وهؤلاء جميعًا ارتكبوا خطأ فادحًا، أودى بهم فى مهاوى الهلاك، جعل الإله القوى القادر يغضب عليهم فيأخذهم أخذة رابية شديدة، أَخْذَ عزيز مقتدر، وما ارتكبه فرعون وأعوانه ومن قبلهم من الأمم المكذبة وما فعله قوم لوط من الكفر وارتكاب الفواحش، يعبر عنه القرآن هنا بالخاطئة، وبأنهم جاءوا بها، وهنا تبدو دقة التصوير القرآنى، وما فيه من دروس وعبر، فقوله: ﴿وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُ...﴾ الآية. تعنى أنهم اختاروا هدفهم عن قصد، وصمموا عليه عن عمد، وحملوه بين أيديهم أو على أكتافهم وأعناقهم وتكبدوا فيه ومن أجله المشقات حتى جاءا به، فما الذى جاءوا به؟ لقد جاءوا بشىء كلُّه خطأ. وكأن الكلمة توحى بأن هناك طريقًا مرسومًا للإنسان حدد معالمه فى بدايته ونهايته وغايته خالق هذا الإنسان، هذا الطريق هو الذى تضىء جنباته بوحى السماء إلى رسل الله، يحيا فى مراحله هذا الإنسان عابدًا لمولاه إلى أن ينتهى به الطريق إلى الدار الآخرة هناك فى جنات النعيم، لكن هذا الطريق - لحكمة أرادها ربنا - تكتنفه شياطين الإنس والجن، والمغريات والشهوات، وقد أرسل الله رسله وأنزل كتبه تحذر من ذلك كله وتدعو إلى الاستقامة على هذا الطريق إلى أن يبلغ العبد

هدفه من النجاة، وفى غفلة من جهله يخطئ وينسى ويجهل فيرتكب خطأ قد لا يمكن إصلاحه لأنه أتى بعد فوات الأوان، إنه لم يحسب حسابه على الوجه الصحيح، لقد أخطأ الحساب، وجاء بالفعلة الخاطئة أو قُلْ جاء بالخطأ الجسيم الذى يعز إصلاحه. ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾ [القصص: ٢٨/٨]، وفى الحديث عن النواس بن سمعان الأنصارى عن رسول الله ﷺ قال: «ضرب الله مثلاً صراطًا مستقيمًا وعلى جنبتى الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة، وعلى الأبواب ستور مرخاة، وعلى باب الصراط داع يقول: يا أيها الناس ادخلوا الصراط جميعًا ولا تتعوجوا، وداع يدعو من جوف الصراط فإذا أراد أن يفتح شيئًا من تلك الأبواب قال: ويحك لا تفتحه فإنك إن تفتحه تلجه، فالصراط: الإسلام، والسوران: حدود الله ـ تعالى ـ، والأبواب المفتحة محارم الله ـ تعالى ـ، وذلك الداعى على رأس الصراط: كتاب الله ـ عز وجل ـ، والداعى فوق الصراط واعظ الله فى قلب كل مسلم»[1].

ويقول ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ فى بيان هذا الصراط: تركنا محمد ﷺ فى أدناه وطرفه فى الجنة وعن يمينه جوادٌ [أى طرقات] وعن يساره جواد، وثَمَّ رجال يدعون من مر بهم، فمن أخذ فى تلك الجواد انتهت به إلى النار، ومن أخذ على الصراط انتهى إلى الجنة، ثم قرأ ابن مسعود: ﴿وأن هذا صراطى مستقيمًا فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله...﴾[2].

وانظر إلى التعبير عن قوم لوط، إنه لم يذكرهم ولم يذكرهم نبيهم ولا ما كان من دعوته لهم، وما كان منهم من تبجح فى ارتكاب الفاحشة والخروج على مقتضيات الفطرة، إنما أشار إلى ما حل بهم فى كلمة واحدة هى قوله: «والمؤتفكات» وقد عبر هنا وفى التوبة بالجمع وعبر بالإفراد فى النجم فقال: والمؤتفكة أهوى. وهى كلمة تحمل القوة الإلهية التى لا تدانيها قوة، والدمار

(١) رواه أحمد والحاكم.

(٢) تفسير الطبرى (١٢/ ٢٣٠)، القرطبى (٧/ ١٣٨)، ط. دار الكتب المصرية ١٩٣٨م.

والهلاك الذى نزل بهؤلاء القوم. فإن الله أمر جبريل ـ عليه السلام ـ باقتلاع تلك القرى الفاجرة فحملها بما فيها ومن فيها واقتلعها من الأرض ورفعها إلى عنان السماء ثم كفأها عليهم وأرسل عليهم حجارة من سجيل وخسف بها وغمرها بالماء المتن الذى ليس فى الأرض ما يشبهه، قال ـ تعالى ـ: ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ (٧٣) فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ (٧٤) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ (٧٥) وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ (٧٦) ﴾ [الحجر: ١٥/ ٧٣ـ ٧٦] فالويل لمن أصر على خطئه ولم يرجع إلى ربه من قريب؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً (١٠) ﴾.

ففى هذه الآية يجمع الله بين السبب والمسبب، بين الهلاك الذى حلَّ بالمكذبين وسببه، والفاء فى قوله: «فعصوا» تدلك على أن القوم ساروا فى طريق الخطأ حتى وصلوا إلى الوقوع فى المعصية، وأى معصية؟ إنها معصية رسول ربهم، ومعصية رسول الله معصية لله كما أن طاعة رسول الله طاعة لله: ﴿ مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا (٨٠) ﴾ [النساء: ٤/ ٨٠]، ورسول الله فى الآية إما أن يكون موسى وإما أن يكون لوطًا باعتباره أقرب مذكور وإما موسى ولوط ـ عليهما السلام ـ ومن قَبْل موسى ـ عليه السلام ـ. وانظر إلى مجيء كلمة «رسول» مفردة فهى تدلك على أن كل أمة كذبت رسولها، ومن كذب رسولاً فقد كذب كل المرسلين، ولذلك ترى فى القرآن: كذبت قوم نوح المرسلين، كذبت عاد المرسلين، كذبت ثمود المرسلين، فهذه وحدة الرسالات الإلهية ومناهجها التى وإن اختلفت فى فروعها فهى واحدة فى أساسها وأهدافها، فأساسها الدعوة إلى توحيد الله والإيمان به، وهدفها تعبيد الناس لربهم وإرشادهم إلى ما فيه سعادتهم فى دنياهم وأخراهم، وإنما عبَّر بالرسالة واختار كلمة «رسول» دون النبوة والنبى فلم يقل: فعصوا نبيهم، لأن الرسالة تعنى اختيار الله لعبد من عباده وتكليفه أن يحمل رسالة للناس من ربهم، أما النبوة فهى اختيار من الله لعبد من عباده وإنزال الوحى عليه

أُمِرَ بالتبليغ أم لم يؤمر، فكل رسول نبي وليس كل نبي رسولاً، وما دام الرسول سيحمل رسالة للناس، فلا بد أن يقع صراع بينه وبينهم، لأنه يريد بوحي من الله أن ينقلهم من عقائدهم الفاسدة، وعاداتهم السيئة، وما فيه الكثير منهم من جهالة جهلاء وضلالة عمياء، يريد انتزاع العبودية للعباد تلك التي فرضها على رقابهم المتجبرون والمستكبرون ويردها إلى رب العباد، إنه يريد إخراج الناس من ضيق الدنيا إلى سعتها ومن جور الحكام إلى عدل الإسلام، فمن الذى سيسلم له بذلك فى سهولة ويسر، ولذلك ترى عبر تاريخ الرسالات أبعاد تلك المعركة بين الرسل ومن أرسلوا إليهم وغالبًا ما تنتهى هذه المعركة بتدخل قوة الإله القوى ليحسم المعركة لصالح المرسلين وأتباعهم، وغالبًا ما يكون هؤلاء الأتباعُ قلة، ﴿ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (١١٠) ﴾ [يوسف: ١١٢/ ١١٠]، ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٠) ﴾ [العنكبوت: ٢٩/ ٤٠]. وفى إضافة الرسول إلى الربوبية، وإضافة الربوبية إلى ضميرهم، ما يجعلنا نقف لنرى ما فى هذا من لوْم لهم على عصيانهم، وبيان لمدى خطئهم وانحرافهم عن الطريق الذى فيه عزتهم وسعادتهم، فلم يقل فعصوا رسول الله، إنما قال: ﴿ فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ ﴾، والربوبية تعنى أمرين: التربية والإصلاح والتقويم وتوفير متطلبات الحياة للخلق، والهيمنة التى لا يشذ عنها مخلوق، فالله ربى الخلائق على موائد كرمه بما سخر لهم من الكائنات، ويسر لهم من أسباب الحياة، وبما أكرمهم به من إرسال رسله وإنزال كتبه، فهو ربهم الذى رباهم ماديًا وروحيًا، وهو ربهم المهيمن عليهم الذين لا يفلتون مما جعله لهم من نظام حياة، وما فطرهم عليه واختاره لهم، فليس لأحد اختيار فى زمن ولادته ولا فى المكان الذى ولد فيه، ولا فيمن يكون له أبا أو تكون له أما ولا حيلة له فى اختيار لونه أو ما عليه بناء

جسمه، أو ما هو فيه من صحة أو مرض إنه مقهور مربوب للرب القوى القادر القاهر، وليس له إلا جوانب معدودة فى الاختيار فلو أعطاها لربه واختار ما اختاره له مولاه لاستراح وأراح بل لسعد فى دنياه وأخراه.

وقد أضاف الربوبية إليهم مع أنه رب العالمين، لبيان بشاعة جرمهم، ومدى جحودهم وغبائهم إذ كيف ينصرف عبد عن مولاه الذىَ يتودد إليه؟ فهذا الخير الذى أفاضه على مخلوقاته كأن هذا الخير كله له هو وكأن هذا الرب رب له هو، وكان عليهم قبل الإقدام على معصيته أن يعلموا من يعصونه، إنهم يعصون ربهم الذى يهيمن عليهم: أرزاقُهم بيده وحياتهم بل ومماتهم رهن إشارته، فأنى يؤفكون؟ وأين يهربون؟ إن قول الله ـ تعالى ـ: ﴿ فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ ﴾ مقدمة فيها بيان لعظم الجرم الذى ارتكبوه فى حق رسولهم وربهم ترتب على هذه المقدمة أن عاجلهم ربهم بالعقوبة كما ذكرها فى قوله: ﴿ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴾ وتأملوا هذه الكلمات فى هذه الجملة من الآية الكريمة: فالفاء فى قوله: فأخذهم: دلت على وقوع عذاب الله بهم دون إبطاء وأنه بعد أن أدى كل رسول ما أمره الله به من البلاغ فلم يستجب إلا القليل وبقيت الكثرة الغالبة فى جهلها وعنادها تصر على التكذيب برسل الله وما جاءوا به من الهداية كان وقوع العذاب بهم هو النهاية التى لا بد منها، ولعلكم تقفون معى عند قوله: فأخذهم، لتروا هذه الصورة التى ترسمها الكلمة لقوم عصاة خارجين على النظام متمردين على مليكهم ومن له الحكم فيهم وظنوا أنهم ناجون من عقابه فإذا بجنده قد أحاطوا بهم وساقوهم إلى مصيرهم فى ذلة وصغار، وتأتى كلمة: «أخذةً» لتؤكد هذا المعنى كل التأكيد، ولتبين أنها أخذة من لون فريد، فإن الحكام مهما بذلوا من وسائل للقبض على المجرمين فهى وسائل بشرية من شأنها أن يفلت منها بعض هؤلاء المجرمين أما أخذ الله للعصاة العتاة المعاندين له فهى أخذة محيطة بهم لا يستطيع أحد أن ينجو منها مهما بذل، ولعلنا ما زلنا نذكر تلك المرأة العجوز من عاد قوم هود والتى هربت من الريح العاتية فى سرداب فدخلت

الريح إليها فى سردابها فأخرجتها وأهلكتها، فلم تُبقِ من عاد باقية، وأَخْذَةً: اسمُ مرة تدلك على مدى قدرة الله وقهره فهم مع كثرتهم واحتياج كل واحد منهم إلى من ينفذ فيه العقوبة إلا أن الله أهلكهم وأحاط بهم عذابه وكأنهم رجل واحد ونفس واحدة ولا عجب فإن أمرَه بين الكاف والنون: إذا قضى أمرًا فإنما يقول له كن فيكون، ﴿مَا خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٢٨)﴾ [لقمان: ٣١/٢٨]، ويأتى وصف الله لأخذته لهم بأنها رابية لبيان أن هذه العقوبة التى وقعت بهذه الأمم كانت من الشدة بمكان، فهى عقوبة رابية أى زائدة على غيرها من العقوبات التى وقعت بغيرهم من الأمم وما ذلك إلا لعظم جرمهم، وشدة عصيانهم وتبجحهم وعنادهم لرسلهم.

٤ - عِبرَة مما حدث لقوم نوح [عليه السلام]

يقول الله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ (١١) لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ (١٢)﴾.

هؤلاء قوم نوح، ما حدث لهم كان آية باقية، وأمرًا يستحق أن يُذكَّر به لأن المخاطبين بهذا القرآن من ذرية نوح، بل إن الناس جميعًا من بعد نوح من ذريته، قال ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ (١١) لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ (١٢)﴾، وفى هذه الآيات تذكير بقدرة الله على إهلاك المكذبين لرسله يضاف إلى ما سبق فى السورة من الحديث عن عاد وثمود وفرعون ومن قبله والمؤتفكات، فلنتأمل فى هذه القدرة الإلهية فى الآيات: ترى معى أنه عبر بـ «نا» الدالة على تعظيم الله ثلاث مرات، فقال: إنا ـ حملناكم ـ لنجعلها، وقدَّم: «لما طغى الماء» على «حملناكم فى الجارية» مبادرةً لإظهار عظمته ـ سبحانه ـ فمقتضى السياق: إنا حملناكم فى الجارية لما طغى الماء، وفى هذه العبارة التى قدمها يعبر عن كثرة الماء الذى أغرق الله به من أغرق

بالطغيان فقال: ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ ﴾، لتعلم أن أمر الماء كالريح العقيم، ليس مجرد ظاهرة كونية، تسير وفق سنن الله فى الأرض، إنما هى مع ذلك محكومة بقدرة الله القوي القادر القاهر، فهذا الذي خلق وأوجد هذه السنن وهو الذي له أن يخرقها إذا ما أراد ذلك، والآيات فى سورة هود وغيرها تبين كيف سارت مراحل الدعوة وكيف قوبلت بالعناد والتكذيب وأن الله أوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومه إلا من قد آمن، وأمره أن يصنع السفينة، وكيف أن قومه كلما مروا عليه سخروا منه: ﴿ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴾، ولما أتم بناءها أمره الله أن يجمع فيها من كل زوجين اثنين، ومن آمن إبقاء لنوع هذه المخلوقات، وذلك حين يرى فوران الماء من التنور (أى موقد النار الذى يُعد فيه الخبز) وما إن أتم جمع ما أمره الله به فى السفينة حتى فُتِّحَتْ أبواب السماء بماء منهمر، وفجر الله الأرض عيونًا فالتقى الماء على أمر قد قدر، وزاد الماء وربا وطغى على الآكام والمرتفعات والجبال، ومن أوى إلى الجبال ظنا أنه يستطيع النجاة جرفه الموج العاتى كما كان من أمر ابن نوح، قال ـ تعالى ـ: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ (٤٠) وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (٤١) وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ (٤٢) قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ (٤٣) ﴾ [هود: ٤٠ـ٤٣] والسفينة وسط هذه الأمواج العاتية تسير وعين الله تحرسها، فيها من الأقوات ما يكفى من فيها، لم ترتطم بجبل، ولم تؤثر فيها المياه التى تفجرت من السماء والأرض، كما قال: ﴿ وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ (١٣) تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ (١٤) وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (١٥) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (١٦) ﴾ [القمر: ١٣ ـ ١٦] وبمجرد أن انتهت هذه المهمة صدرت الأوامر للأرض أن تبلع ماءها

وللسماء أن تتوقف عن إنزال الماء. قال ـ تعالى ـ: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤٤)﴾ [هود: ١١/ ٤٠ ـ ٤٤].

وقد جمع الله هذه المعانى فى الآية الكريمة: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ (١١)﴾، وحملت كلمة «طغى» ما كان من أمر هذا الماء الذى طغى وزاد وفاق كل الحدود وكل المعهود، قال على ـ رضى الله عنه ـ: طغى على خزانه من الملائكة فلم يقدروا على حبسه، وقال ابن عباس: طغى الماء زمن نوح على خزانه وكثر عليهم فلم يدروا كم خرج وليس من الماء قطرة تنزل قبله ولا بعده إلا بكيل معلوم غير ذلك اليوم، وانظر إلى فضل الله ومنته ورحمته فيما أنعم به على نوح، وكيف أن هذا الإنعام وصل خيره إلى المخاطبين بهذا القرآن من أهل مكة، ويصلح أن يخاطب به من عاصرهم ومن بعدهم إلى يوم القيامة فيقال لهم: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ﴾، والذين حملهم الله فى الجارية هم المؤمنون من قوم نوح، وأهله إلا من كفر منهم كزوجه وابنه، ولكن الخطاب توجه إلى المعاصرين لرسول الله ﷺ لأنهم كانوا فى أصلاب آبائهم الذين ركبوا مع نوح، ولو هلك هؤلاء الآباء ما كان هؤلاء الأبناء، أو أن نجاة هؤلاء الذين أكرمهم الله ونجاهم نجاة لمن جاء بعدهم، فقد تناسل هؤلاء جيلاً بعد جيل حتى كان الجيل الذى بعث فيه رسول الله ﷺ.

وقد عبر عن ركوبهم للسفينة بالحمل مع أنه أمر بالإركاب فقال: ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا﴾، وقال: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ﴾، كما أمر بالحمل فقال: ﴿قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ﴾، ولكنه حين يخبر عمن حملهم مع نوح يأتى بضمير المعظم نفسه، إظهاراً لما فى هذا الأمر من دلالة على قدرة الله ورحمته فيقول: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ

عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾ ﴾ [الإسراء: ٣]، ويقول: ﴿ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ﴾ [مريم: ٥٨]، ويقول: ﴿ وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ ﴾ [يس: ٤١]، ويقول: ﴿ وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ ﴾ [القمر: ١٣]. وهنا يقول: ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ﴾، لأن المسألة ليست فى أنهم ركبوا فى السفينة. فماذا بعد ركوبهم؟ من الذى علَّم نوحًا صناعة هذه السفينة فكانت من القوة والمتانة ـ لأول مرة فى تاريخ الإنسانية ـ حتى كانت صالحة لحمل هؤلاء المؤمنين وأهل بيت نوح، ثم هذه الأصناف من الطيور والوحوش والأنعام وسائر المخلوقات التى لها وجود فى هذه الأرض، أى سفينة تلك التى حملتهم، ومن الذى حفظ هذه السفينة وسط الأمواج التى هى ـ كما قال القرآن ـ كالجبال حتى استوت على الجودى، ومن الذى يسَّر أسباب الحياة لمن فى السفينة فى طعامهم وشرابهم، إنها عين الله التى لا تنام ولا تغفل، وكما قال ـ سبحانه ـ: ﴿ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ ﴾ [القمر: ١٤] وهذا هو سر اختيار كلمة «حمل» مسندة إلى «نا» فى قوله: «حملناكم»، بكل ما تعنيه من هذه الرحمة وهذه الحكمة وهذا الترتيب الإلهى الربانى، وتأتى كلمة «فى الجارية» صفة للسفينة التى صنعها نوح بوحى من الله فجعلها على هيئة صَدْر الطائر ليكون ما يجرى فى الماء مقاربًا لما يجرى فى الهواء، وفى هذا الوصف بيان لسرعتها وقدرتها على الحركة وسط الأمواج العاتية، وفى تعريف هذه الصفة مبالغة تليق بالمقام لأنها أفادت أنها عريقة فى الجريان حتى كأنه لا جارية غيرها على وجه الماء الذى جعلنا من شأنه الإغراق[1].

وإذا قلنا بأنها صفة للسفينة فهذا تعبير بالصفة عن الموصوف، يرسمُ أمامك مشهدًا للسفينة تجرى بقوة والماء منهمر من فوقها والأرض تفور بالماء من تحتها، والأمواج تجرف من على الأرض دون هوادة، إنها الجارية، وهل كان هناك فى هذه الدنيا جارية سواها؟ وحين قال الله: ﴿ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ

(١) انظر: نظم الدرر للإمام البقاعى (٨/ ١٢٥).

أقْلِعي وغِيضَ الْماءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ واسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ﴾، بقيت هذه السفينة حتى رأت الأجيال من عهد نوح إلى أوائل أمة الإسلام بقايا هذه السفينة علامة على قدرة الله على إهلاك المعاندين المكذبين وإنجاء المؤمنين الصادقين، والآية الثانية فى الآيتين جمعت هذه الموعظة وتلك الدروس المستفادة فى كلماتها فقالت: ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ واعِيَةٌ (١٢)﴾، والتعبير بالمضارع فى قوله: لنجعلها، يدل على أن هذه الدروس المستفادة من قصة نوح - عليه السلام - متجددة بتجدد الزمان والمكان، تتوارد عليها أجيال البشرية جيلاً بعد جيل لتأخذ منها العبرة والعظة، ولذلك يُذَكِّر الله بهذه النعمة: نعمة إنجاء نوح ومن معه من الأمم وكأنها هى التى كانت مع نوح فى سفينة. فينادى بنى إسرائيل ليحثهم على شكره بالانضواء تحت راية الإسلام فيقول: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا (٣)﴾ [الإسراء: ١٧/٣]، كما يمتن بذلك على من نزل فيهم هذا القرآن، داعيًا إياهم إلى تدبر آياته والإيمان بما جاء به نبيه فيقول: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (٤١) وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ (٤٢)﴾ [يس: ٣٦/ ٤١، ٤٢] ومع أن الله جعلها آية يتدبرها الناس عبر العصور والأزمان إلا أنه قال: لنجعلها لكم.. أى ولغيركم ممَّن كان قبلكم ومن يأتى بعدكم، إلا أنه أراد أن ينبه هؤلاء القائلين من أهل مكة - وهم أول من شوفهوا وخوطبوا بهذا القرآن - ليفيئوا إلى ربهم، وليشعروا بأن الله أكرمهم فيمن أكرمهم حين نجى نوحًا ومن معه من الطوفان والغرق، فكانوا من ذريته وذريتهم.

بل كأن هذه الآية تذكرةٌ لهم وحدهم، فإن ترتيب الآية هكذا: «لنجعلها تذكرة لكم» لكنه قدم «لكم» على تذكرة لهذا المَعْنَى، والقرآن الذى نزل فى مكة كثيرًا ما يتوجه بالآيات العامة والدلائل التى يجب أن يلتفت إليها الناس جميعًا إلى أهل مكة المعاندين الجاحدين، فتراه يقول: ﴿وآية لهم الأرض الميتة أحييناها - وآية لهم الليل نسلخ منه النهار - وآية لهم أنا حملنا ذريتهم فى الفلك المشحون﴾، وفى سورة الروم ترى مثل هذا: ﴿ومن آياته أن خلقكم من تراب - ومن آياته أن

خلق لكم من أنفسكم أزواجًا ـ ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم ـ ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله ـ ومن آياته يريكم البرق خوفًا وطمعًا﴾ إلى غير ذلك من الآيات، وهذه أدلة يخاطب الله بها الناس جميعًا لكن أول المخاطبيْن بها هم المشركون من أهل مكة، فبإيمانهم ودخولهم فى الإسلام تبدأ رحلة هذا الدين، وانطلاقته. ومن انشرح صدره منهم بالإيمان كانوا هم اللبنات التى شيد عليها البناء، وهم الذين تحملوا فى بداية الدعوة فوق ما يتحمله بشر، أوذوا فى سبيل الله، هاجروا إلى الحبشة مرتين ثم كانت هجرتهم إلى المدينة مفارقين الأهل والمال والديار، تحملوا شظف العيش وعداوة أهل الأرض، إلى أن مكن الله لدينهم واستخلفهم فى أرضه، وأيدهم بنصره، ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ [النور: ٢٤, ٥٥].

وتأتى كلمة «تذكرة» فى قوله: ﴿لنجعلها لكم تذكرة﴾ هكذا نكرة، لترشدنا إلى أنها تذكرة عظيمة شاملة، قوية، تهز المشاعر والأحاسيس والوجدان، تذكرة من لون فريد، إنها ليست حدثًا عابرًا، ولا مجرد قصة تروى، إنها قصة إعادة بناء الإنسانية من جديد، فمن خلقهم الله وأوجدهم من آدم وبنيه إلى عهد نوح، كانوا على دين التوحيد فترة من الزمان إلى أن أضلهم الشيطان فعبدوا من دون الله أو معه آلهة أخرى، وأرسل الله إليهم نوحًا يردهم عن الغواية والضلال ويدعوهم إلى عبادة الكبير المتعال فعاش داعيًا إلى دين الله ألف سنة إلا خمسين عامًا فلم يؤمن بدعوته إلا القليل، وكان الرجل فى كل جيل يوصى أبناءه ألا يؤمنوا به، فهو فى نظرهم ساحر أو مجنون حتى يئس ـ عليه السلام ـ من إيمانهم وقال: ﴿رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾﴾ [نوح: ٧١/٢٦] فاستجاب الله دعاء نبيه وأغرقهم جميعًا إلا من آمن منهم به وهم كما قال ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ﴾ فهذه إذن تذكرة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، تبين

قدرة الله على إهلاك أعدائه ونصر أوليائه وأحبابه، والتذكرة تعنى أن هناك نسيانًا، والناس يحتاجون إلى تذكرة، وأخطر ما يبتلى به الإنسان النسيان لربه، نعم النسيان الذى هو من طبيعة الإنسان نعمة لأنه لو ظل ذاكرًا لآلامه وأحزانه لهلك بل لو استمر ذاكر لأفراحه لهلك أيضًا من شدة الفرح وما سمى الإنسان إنسانًا إلا لنسيانه، لكن هذا النسيان إن كان نسيانًا لله ونعمه وفضله كان دمارًا وضياعًا وفسوقًا وكفرًا ﴿ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون ـ نسوا الله فنسيهم إن المنافقين هم الفاسقون ـ فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا وما كانوا بآياتنا يجحدون﴾ ولهذا رغب الإسلام فى ذكر الله والإكثار منه، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا (٤١) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (٤٢)﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ٤١ ، ٤٢] وأعلى ذكر الذاكرين ومنحهم الأجر العظيم ووضع منهجًا للذكر يواكب لحظات الليل والنهار، يلهج به اللسان وينفعل به الوجدان، من الأقوالِ والأفعالِ والأحوالِ من أول لحظة يتقلب فيها العبد فى فراشه فيقول: «الحمد لله الذى أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور» إلى أن يُسلم نفسه إلى ربه حين يأوى إلى فراشه بالليل فيقول: اللهم أسلمت نفسى إليك ووجهت وجهى إليك وفوضت أمرى إليك، وألجأت ظهرى إليك، رغبة ورهبة إليك، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك، آمنت بكتابك الذى أنزلت ونبيك الذى أرسلت. فقصة نوح إذن تذكرة عظيمة لهذه الأمة.

يقول الإمام القرطبى: لنجعلها لكم تذكرة: يعنى سفينة نوح ـ عليه السلام ـ جعلها الله تذكرة وعظة لهذه الأمة حتى أدركها أوائلهم، فى قول قتادة، وقال ابن جريج: كانت ألواحها على الجودى، والمعنى: أبقيت لكم تلك الخشبات حتى تذكروا ما حل بقوم نوح وأنجى الله آباءكم من سفينة هلكت وصارت ترابًا ولم يبق منها شىء(١).

وإذا كانت قصة نوح وسفينته عبرةً وعظة فما حدث لعاد وثمود وفرعون وقومه وما كان من أمر قوم لوط وغيرهم كل ذلك فيه الكثير من الدروس النافعات والعبر والعظات ولذلك يمكن أن تقول: لنجعلها لكم: أى لنجعل

(١) الجامع لأحكام القرآن: للقرطبى ١٨ / ٢٦٢

تلك الفعلة من إنجاء المؤمنين وإهلاك المكذبين لكم تذكرة، وتعيها إذن واعية، وما قيل فى عودة الضمير فى قوله: «لنجعلها» يقال فى عودة الضمير فى قوله: «وتعيها»، وانظر إلى التعبير بقوله «وتعيها» فإن الأمر ليس مجرد قصة أو قَصَص يُسرد لتلتفت إليه تتذكرُ ما فيه من العبر، وإنما يحتاج هذا الأمرُ إلى وعى وإدراك، وكثرة تأمل، وكأن النفس وعاء تودع فيه هذه المعانى لتبقى معينًا نابضًا يحرك الوجدان والمشاعر فى كل زمان ومكان، وهذا ما يفيده مجىء الكلمة فعلاً مضارعًا، ولم ترد الكلمة بهذا المعنى فى القرآن إلا هنا فى سورة الحاقة وفى قوله فى [الانشقاق]: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ (٢٣)﴾ أى: بما يضمرون فى قلوبهم، وما عدا ذلك تأتى على معناها الأصلى وهو الوعاء، كما فى قوله: ﴿فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ثم استخرجها من وعاء أخيه﴾، والوعى: الحفظ فى النفس، والإيعاء: الحفظ فى الوعاء، وقد أسْنَدَ الوعىَ للأذن فقال: «وتعيها أذن» مع أن الذى يعى هو صاحبها من باب المبالغة، ووصفها بأنها واعية تأكيدًا لهذا المعنى، وما أجملها من مشاكلة بين الكلمتين: تعيها وواعية، وأتى بها مفردة: للدلالة على أن الوعاة من الناس قلةٌ، وفى هذا توبيخ لهم لقلة من يعى منهم، مع أن الأمر فى غاية الخطر إذ هو يتعلق بالحياة الباقية فى الدار الآخرة، وهناك ملحظ آخر فى مجىء الأذن مفردة إذ فى ذلك ما يدل على أن الأذن الواحدة إذا وعت وعقلت عن الله فصاحبها هو الذى له المنزلة عند الله، وما عدا ذلك همل لا قيمة لهم، إنهم كالأنعام بل هم أضل، كما قال ـ عز من قائل ـ: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (١٧٩)﴾ [الأعراف: ٧/ ١٧٩].

وفى تنكير الأذنِ وصفتها: ما يرشدك إلى منزلة هذه الأذن الواعية عند الله، وأن أصحابها هم أصحاب المكانة السامية فهم الذين عقلوا عن ربهم فعملوا بما سمعوا فكانوا من الفائزين فى الدنيا والآخرة.

* * *

٥ - يوم القيامة وما يكون فيه

يقول الله تعالى: ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ ﴿١٧﴾ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾ ﴾ [الحاقة: ١٣ ـ ١٨].

لما ذكر ـ تعالى ـ القيامة وأنها حق فهى الحاقة وعظم من أمرها وبين عاقبة من كذب بها شرع فى تفاصيل أحوالها وبدأ بذكر مقدماتها فقال: ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ ... ﴾ الآيات، فماذا ترون فى هذه الآيات من روائع المعانى؟ إنها تبدأ بقوله: فإذا: وهى حرف شرط يفيد تحقق الوقوع، فما بعدها إذًا واقع لا محالة لا يشك فيه إلا كل مكابر معاند، وفى الآيتين بعد هذا الشرط ثلاثة أفعال مبنية للمجهول هى: نُفِخ، حُمِلتْ، دُكَّتا، وفى حذف الفاعل وبناء هذه الأفعال للمجهول مبادرة للمطلوب والمقصود من سياق الآيات، ألا وهو التخويف والترهيب من يوم القيامة بما له من مقدمات تصورها الكلمات وحيثما أتى الحديث فى القرآن عن النفخ فى الصور تراه دائمًا مبنيًا للمجهول: ماضيًا فى سبع مواضع ومضارعًا فى أربع مواضع وذلك لتحقيق هذا الهدف من التخويف والترهيب من هذا اليوم العظيم.

وقد أوضحت السنة المطهرة أن الذى ينفخ فى الصور هو إسرافيل ـ عليه السلام ـ وأنه قائم مستعد منتظر أمر الله له بالنفخ، روى الترمذى وغيره عن أبى سعيد الخدرى ـ رضى الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: كيف أنْعَمُ وقد التقم صاحب القرن القرن وحنى جبهته وأصغى سمعه ينتظر أن يؤمر فينفخ

فكأن ذلك ثقل على أصحابه فقالوا فكيف نفعل يا رسول الله أو نقول؟ قال: قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل، على الله توكلنا، وربما قال: توكلنا على الله(١).

والنفخ الذى عبرت به الآية والآيات الأخرى فى القرآن وعبرت به السنة، يدلك على عظم خلق الله لملائكته ومدى قدرته على بعث خلقه، فإن النفخة فى الصور يترتب عليها أمر مهول، وتأمل معى قول الله ـ تعالى ـ: ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُم قِيَامٌ يَنظُرُونَ (٦٨) ﴾ [الزمر: ٣٩/ ٦٨].

وقوله: ﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ (٨٧) ﴾ [النمل: ٢٧/ ٨٧]، فأى نفخة تلك التى يترتب عليها صعقُ من فى السموات ومن فى الأرض أولاً ثم إحياؤهم ثانيًا؟ وأى قدرة لهذا الملك إسرافيل ـ عليه السلام ـ أعطاها الله له حتى أوصلت نفخته إلى الأحياء فى السموات والأرض فصعقوا ثم إلى الأموات فإذا هم قيام ينظرون؟ والنفخ فى اللغة معروف وهو: أن تبعث بفمك ريحًا بقوة فى بوق ونحوه فتحدث صوتًا. يقال: نفخ بفمه نفخًا أخرج منه الريح، ويقال: نفخ فى البوق أو اليراع أو نحوهما: بعث فيه الريح بقوة من فمه ليحدث صوتًا. والصور الذى ينفخ فيه إسرافيل هو القرن كما جاء فى الحديث الذى أخرجه أبو داود والترمذى عن عبد الله بن عمرو بن العاص ـ رضى الله عنهما ـ قال: جاء أعرابى إلى النبى ﷺ فقال: ما الصور؟ قال: «قرنٌ ينفخُ فيه، وهذا القرن مثل البوق، ولكن أى بوق هذا؟ وقد قيل بأنه كعرض السماء والأرض، والأولى تفويض علم ذلك للعليم الخبير، فنحن نؤمن بأن ربنا سيأمر ملكًا اسمه إسرافيل بأن ينفخ فى الصور وهو القرن الذى هو كهيئة البوق فيترتب على ذلك ما جاءت

---

(١) أخرجه الترمذى فى صفة القيامة باب ما جاء فى شأن الصور، وإسناده ضعيف ولكن له شواهد يقوى بها فقد أخرجه الطبرانى من حديث زيد بن أرقم، وابن مردويه من حديث أبى هريرة ولأحمد والبيهقى من حديث ابن عباس، وفى أسانيد كل منها مقال، ولكن يقوى بعضها بعضًا.

به الآيات والأحاديث، والنفخ والآلة التى سينفخ فيها بل وهيئة الملك وصفته كل ذلك غيب لا سبيل إليه إلا عن طريق الصادق المعصوم ﷺ، ومما يزيد فى تعظيم هذا النفخ أنه كما قال ـ تعالى ـ: ﴿ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ﴾، وهل أمر الله يحتاج إلى تكرار، إنها نفخة واحدة ينفخها إسرافيل فيكون من أمر الله ما يكون، وهذه النفخة هى النفخة الأولى التى عندها انتهاء هذا النظام الكونى، قال فى الكشاف: فإن قلت إنما قال بعد: يومئذ تعرضون. والعرض إنما هو عند النفخة الثانية وبين النفختين زمن طويل؟ قلت: جُعِل اليوم اسمًا للحين الواسع الذى يقع فيه النفختان والصعقة والنشور والوقوف والحساب فلذلك قيل: «يومئذ تعرضون»، كما تقول: جئته عام كذا، وإن كان مجيئك فى وقت واحد من أوقاته..»[1] وقيل هذه هى النفخة الثانية، ورد ذلك عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ.

ولم يذكر الله ما يترتب على النفخ من الصعق والإحياء إنما ساقه فى جملة مايكون من أمر الله حين يريد سبحانه أن يبعث الناس من قبورهم، وهذه هى الجبال ينسفها الله بقدرته نسفًا. والآية بألفاظها تعبر عن ذلك تعبيرات مُوحية فتقول: ﴿ وَحُمِلَتِ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ﴾، ولم تذكر الآية من حمل الأرض والجبال، ولذلك قيل بأن الذى حملها هم الملائكة أو الرياح أو القدرة الإلهية، والآيات الأخرى تبين أن الله بقدرته هو الذى دكها ونسفها فتقول: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا (١٠٥) فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا (١٠٦) لا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلا أَمْتًا (١٠٧) ﴾ [طه: ٢٠/١٠٥ـ١٠٧]. والجبال جزء من الأرض وإن كان الله قد أرساها على الأرض تثبيتًا لها حتى لا تميد وتضطرب، فإذا جاء أمر الله رجت الأرض رجا وبُست الجبال بسا فكانت هباء منبثا، وهنا يختار كلمة «الدك»، وكم فيها من القوة وما تحمله من القدرة الإلهية، بما يتناسب مع سياق الآيات. والدك هو الدّقُّ إلا أن الدك فيه تفرق الأجزاء، والدق فيه اختلاف الأجزاء، وزيادة فى بيان الشدة الشديدة التى حدثت يأتى بالضمير مثنى هكذا

(١) تفسير الكشاف (٤/ ١٥٠).

«دكتا» فقد جعل الأرض بكل ما فيها وما عليها شيئًا واحدًا وجعل الجبال وما فيها وما عليها شيئًا واحدًا ضرب هذه بتلك ففتتها وأزالها. كما قال ـ تعالى ـ: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلاً ﴿١٤﴾﴾ [المزمل: ٧٣/ ١٤]، وهناك معنى آخر للدك وهو التسوية والبسط من قولهم بعير أدك وناقة دكاء إذا ضعفا فلم ترتفع سنامهما. حينذاك لا ترى فيها أى فى الأرض عوجا ولا أمتا. ولعل التفتت مقدمة للتسوية فقد قيل بأن أصل الدك الضرب على ما ارتفع لينخفض ويلزمه التسوية غالبًا فلذا شاع فيها حتى صار حقيقة ومنه أرض دكاء للمتسعة المستوية، ويأتى قوله: ﴿دَكَّةً وَاحِدَةً﴾ مؤكدًا هذه القدرة التى لا يعجزها شيء، وقد جاء فى القرآن قوله ـ تعالى ـ. ﴿كَلاَّ إِذَا دُكَّتِ الأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإِنسَانُ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾﴾ [الفجر: ٨٩/ ٢١ ـ ٢٣]. وهنا يقول: ﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾. والفاء العاطفة تفيد الترتيب والتعقيب مما يدلك على أن هذه مقدمات متوالية سريعة لا تترك مجالاً لالتقاط الأنفاس والمراجعة والندم وزيادة العمل الصالح إن كان هناك عمل صالح، وقد روى أحمد وابن حبان فى صحيحه عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «لَتقومُ الساعة وثوبهما (أى البائع والمشترى) بينهما لا يبايعانه ولا يطويانه، ولتقوم الساعة وقد انصرف بلبن لقحته لا يطعمه، ولتقوم الساعة والرجل يلوط حوضه لا يسقيه، ولتقوم الساعة وقد رفع لقمته إلى فيه لا يطعمها». وروى الطبرانى بإسناد جيد عن عقبة بن عامر ـ رضى الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «تطلع عليكم قبَل الساعة سحابة سوداء من قبل المغرب مثل الترس فلا تزال ترتفع فى السماء وتنتشر حتى تملأ السماء ثم ينادى مناد: يا أيها الناس أتى أمر الله فلا تستعجلوه،» قال رسول الله ﷺ: «فوالذى نفسى بيده إن الرجلين ينشران الثوب فلا يطويانه، وإن الرجل ليمْدُرحوضه (أى يطينه لئلا يتسرب منه الماء) فلا يسقى منه شيئًا أبدًا، وإن الرجل يحلُبُ ناقته فلا يشربه أبدًا» ولكم فى قوله: «فيومئذ» من إشارة إلى عظم

هذه المقدمة لأن التنوين عوض عن المحذوف أى فيوم إذ نفخ فى الصور نفخة واحدة وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة حينذاك فى هذا الوقت العصيب تكون الواقعة قد وقعت: فيومئذ وقعت الواقعة، **فلماذا اختار هذا الوصف من أوصاف يوم القيامة وما معناه وما مغزاه فى هذا المقام؟**

سبق أن ذكرنا أن سورة الحاقة من السور المكية التى جاءت آياتها وكلماتها إنذارًا وتخويفًا للمعاندين المكذبين، ومن ذلك ما نراه من قوله: ﴿وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾، ومعناها: قامت القيامة، والقيامة التى ذكرت فى القرآن سبعين مرة لم تذكر هنا بهذا الاسم إنما وصفت بأنها الحاقة، وأنها القارعة، وأنها الواقعة، وقد عرفنا معنى كل من الحاقة والقارعة، أما أنها الواقعة، فهذا وصف يعنى الشدة الشديدة، والتى تسقط من مكان فتثبت فى المكان الذى وقعت فيه، وفى سقوطها على من سقطت عليه قرْع له، فكانت القارعة، وتحقق من وقوعه فهى الحاقة، وهى الثابتة التى تراها وقد حلَّت بالغافلين وسقطت عليهم سقوط الكارثة التى تُفزعهم والتى تجعل كل مرضعة تذهل عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله الشديد.

يقول الراغب فى مفرداته: «الوقوع: ثبوت الشىء وسقوطه، يقال: وقع الطائر وقوعًا، والواقعة: لا تقال إلا فى الشدة والمكروه، وأكثر ما جاء فى القرآن من لفظ «وقع» جاء فى العذاب والشدائد نحو: ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ۝١ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢﴾ وقال: ﴿سأل سائل بعذاب واقع﴾ فيومئذ وقعت الواقعة»[1].

وبعد أن بين ما يحدث للأرض والجبال انتقل إلى ما يحدث للسماء فقال: ﴿وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ۝١٦ وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ ۝١٧﴾. والحديث عن نهاية العالم فى القرآن يأتى أحيانًا ببيان ما يحدث للسماء وما فيها أولاً ثم يثنى بالأرض وما عليها وأحيانًا

---

(١) معجم مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهانى ص٥٦٧.

العكس، اقرأ فى ذلك ما جاء فى التكوير والانفطار والانشقاق وغير ذلك من سور القرآن لترى أنه بدأ بالسماء قبل الأرض، وما ذلك إلا لأن هدم البناء إنما يبدأ بسقفه وبأعلاه، ولذلك كان هو الغالب فى استعمال القرآن، ولكنه أحيانًا يبدأ بالحديث عما يحدث للأرض وجبالها، لأنها الأقرب فى التذكير، ثم يأتى حديثه عن السماء وما فيها كما نرى فى الآيات التى معنا من سورة الحاقة، بل أحيانًا يكتفى بالحديث عما يحدث للأرض وجبالها كما ترى فى الواقعة والزلزلة وغيرها، وذلك كله لأهداف تريد كل سورة أن تحققها فيأتى ذكر هذا أو ذاك تقديمًا وتأخيرًا أو اكتفاءً بأحدهما، وهنا عبَّر عما سيصير إليه أمر السماء بقوله: ﴿وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾﴾ والسماء، والسموات السبع، عوالم لا يعلم حقيقتها وما فيها ومن فيها إلا الله، وليس لنا من سبيل للعلم بذلك إلا ما جاء به كتاب ربنا وسنة نبينا ﷺ، ولكن الذى نعرفه أنها جهة العلو، وأن الله زين السماء الدنيا بزينة الكواكب، وإذا أراد الله أن تنتهى هذه الحياة صدر أمره الإلهى بذلك فانفرط عقد هذا الكون وتناثرت أجزاؤه وصار إلى العدم، وتشقُّ السماء بكواكبها ومجراتها وأجرامها مرحلة تتبعها مراحل الزوال والفناء. قال ـ تعالى ـ: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿٤﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٥﴾﴾ [الانشقاق: ٨٤/ ١ ـ ٥] إذا حدث هذا كان لقاء الله وكان حساب الخلق.. ﴿إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾﴾ [الانفطار ٨٢/ ١ ـ ٥] فما معنى هذا التشقق، وما الذى يترتب عليه.؟؟

التشقق فى اللغة معروف فأنت تقول: شق الشىء: صدعه. وشق النهر: حفره، وشق الأرض: حرثها، وانشق الشيء بنفسه وتشقق: تصدع وانكسر. قال ـ تعالى ـ: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلائِكَةُ تَنزِيلاً ﴿٢٥﴾ الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾﴾ [الفرقان: ٢٥/ ٢٥، ٢٦]

ففى قوله: ﴿ويوم تشقق السماء بالغمام﴾ بيان لسبب هذا التشقق، وأن الغمام هو الذى جعل السماء تتشقق وتتصدع، وقد قيل بأن هذا الغمام سحاب أبيض فوق السموات ثخنه كثخن السموات السبع كذلك، وثقله كذلك فينزلُ على السماء السابعة فيخرقها بثقله ويشققها وهكذا حتى ينزل إلى الأرض وفيه الملائكة، أى ملائكة كل سماء فينزل أولاً ملائكة السماء الدنيا وهم أزيد من أهل الأرض من إنس وجن، ثم ملائكة السماء الثانية وهم أزيد من ملائكة سماء الدنيا، وهكذا وإذا نزل ملائكة سماء الدنيا اصطفوا حول العالم المجموع فى المحشر صفًا، وإذا نزل ملائكة السماء الثانية اصطفوا خلف هذا الصف صفًا آخر وهكذا حتى تصير الصفوف سبعة(١).

فالسماء إذن تتشقق لأن هذا الغمام يخرقها وهى تتشقق ومعها الغمام الذى شققها، وهى تتشقق فيبدو هذا الغمام ولا تعارض بين هذه المعانى، والروايات الواردة فى هذا ليس فيها حديث مرفوع إلى رسول الله ﷺ لذلك يكفينا أن الله أخبرنا بأن السماء تتشقق وأنها تتشقق بسبب الغمام، وقد أخبرنا فى آيات أخرى بأنه - سبحانه - يأتى فى ظلل من الغمام والملائكة وعلينا أن نفوض حقيقة ذلك إلى علام الغيوب، وهنا أضاف شيئًا مترتبًا على تشققها وهو ضعفها الشديد، وأن هذا الضعف كان نتيجة لازمة لهذا التشقق فقال: ﴿وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾﴾، ولم ترد كلمة «واهية» فى القرآن إلا هنا فى سورة الحاقة، وإن كان التعبير بالوهى، وأنها واهية غير التعبير بالوهْن، فإن الوهْن هو الضعف من حيث الخَلق أو الخُلُق: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾ [مريم: ١٩/ ٤]، وقال: ﴿فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا﴾ [آل عمران: ٣/ ١٤٦]، وقال: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ [لقمان: ٣١/ ١٤]، أى كلما عظم فى بطنها زادها ضعفًا على ضعف، أما الوهْى (بالياء) فهو كما يقول ابن فارس: «يدل على استرخاء فى شىء، وكل شىء استرخى رباطه فهو

---

(١) الفتوحات الإلهية للعلامة الجمل (٣/ ٢٥٣).

واه، والوهْى: الشق فى الأديم وغيره»[1]، ولعل هذا الاسترخاء سببه التشقق بل إنّ هذا هو ما تفيده الفاء العاطفة لقوله: ﴿فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾ على قوله: ﴿وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ﴾، وكم فى قوله: ﴿فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾ من روائع المعانى، فالجملة جملة اسمية تدل على الثبات والدوام أى هذه هى الحالة التى صارت إليها السماء من التمدد والاسترخاء والتشقق والانفطار، وانظر إلى: فهى واهية لترى هذا الجناس بجرسه ووقعه فى النفس، فقد اختار: هى، وأخبر عنها بقول: واهية، ثم أتى بينهما بكلمة: يومئذ، وهى كلمة تؤدى دورها فى إبراز هذا الذى نزل بالسماء من التشقق والاسترخاء والتصدع والانفطار، وفى الكلمة تنوين هو عوض عن المضاف أى يومئذْ انشقت السماء، وكأنه بهذا يلفت النظر إلى ما فى هذا التشقق من أمر مهول، ولم لا يكون مهولاً مخيفًا، وهو ليس تشققًا لسقف أو لأحد المبانى، أو لغير ذلك مما نراه يتشقق فتتصدع جدرانه ويهوى، إنما هذا تشقق لتلك السماء المحكمة القوية التى بناها رب العزة والقدرة بهذا الاتساع وهذه العظمة وتلك الروعة كما قال ـ تعالى ـ: ﴿فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ (٣٧) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٨) فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلا جَانٌّ (٣٩) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٠)﴾ [الرحمن: ٥٥/ ٣٧ـ ٤٠].

بقى فى هذا المشهد مشهد السماء التى تؤذن بزوال حالِ الملائكة وهم سكان السموات، وحالِ عرش الرحمن ومن يحمله وهو فوق السموات، والآية الثانية تبين لنا ذلك فتقول: ﴿وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ (١٧)﴾، «والملك» اسم جنس يراد به الملائكة. ولذلك قال: ﴿وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا﴾، وليس من المعقول أن يكون هذا ملكًا واحدًا يتنقل على أرجائها، وإنما هؤلاء الملائكة حين انهدم بناء السماء وتفرق تفرقوا على حافاتها وأطرافها، وهذا معنى قوله: أرجائها، فإن الرَّجا: هو الجانب وجمع رجا

(١) انظر: معجم مقاييس اللغة لابن فارس (٥/ ١٤٦)، ومعجم مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهانى ص٥٧٢.

أرجاء، ووقوف الملائكة على أطراف السماء انتظارًا لأمر الله لهم لينزلوا فيحيطون بالأرض ومن عليها، وقد قال ـ تعالى ـ: ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلائِكَةُ تَنزِيلاً (٢٥) ﴾ [الفرقان: ٢٥/ ٢٥]، وقال: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلائِكَةُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ (٢١٠) ﴾ [البقرة: ٢/ ٢١٠]. وقال: ﴿ كَلاَّ إِذَا دُكَّتِ الأَرْضُ دَكًّا دَكًّا (٢١) وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا (٢٢) ... ﴾ الآيات [الفجر: ٨٩/ ٢١، ٢٢]. وهذا هو الذى دعا ابن جبير والضحاك إلى القول بأن الضمير فى قوله: «أرجائها» يعود إلى الأرض، وإن لم يسبق لها ذكر، والحقيقة أن ملائكة السماء لا يبقون بعد زوال السماء على أرجائها وحوافها وأطرافها، لأن هذا أيضًا إلى زوال، إنما ينزلون إلى أرض المحشر يحيطون بمن فى المحشر، فيصطفون صفا صفا وينزل رب العزة والجلال للفصل بين خلقه، ﴿ وَتَرَى الْمَلائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٧٥) ﴾ [الزمر: ٣٩/ ٧٥].

﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ (١٧) ﴾، وقد تحدث القرآن عن العرش فى واحد وعشرين آية مبينًا أن الله رفيع الدرجات ذو العرش، وأنه ذو العرش المجيد، ورب العرش العظيم، ورب العرش الكريم وأنه خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش، وكان عرشه على الماء، وإذا كانت كلمة العرش قد وردت هكذا فى واحد وعشرين موضعًا من القرآن فإن الكرسى لم يرد إلا فى آية تسمى بآية الكرسى، وفيها: ﴿وسع كرسيه السموات والأرض﴾، والعرش أكبر من الكرسى، كما دلت على ذلك الآثار الصحيحة. منها ما رواه ابن مردويه عن أبى ذر الغفارى ـ رضى الله عنه ـ أنه سأل النبى ﷺ عن العرش فقال رسول الله ﷺ: «والذى نفسى بيده ما السموات السبع والأرضون السبع عند الكرسى إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة، وإن فضل العرش على الكرسى كفضل الفلاة على تلك الحلقة»، والعرش والكرسى

حقيقتـان نؤمن بوجودهما ونفوض ما يتعلق بهما من هيئتهما وأوصافهما إلى من خلقهما، وهذا هو الطريق السليم والأسلم والقويم والأقوم وهذا مذهب السلف الصالح، يقول الإمام ابن كثير فى قوله ـ تعالى ـ: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ للناس فى هذا المقام مقالات كثيرة جدًا ليس هذا موضع بسطها وإنما نسلك فى هذا المقام مذهب السلف الصالح مالك والأوزاعى والثورى والليث بن سعد والشافعى وأحمد وإسحاق بن راهويه وغيرهم من أئمة المسلمين قديمًا وحديثًا، وهو إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل، والظاهر المتبادر إلى أذهان المشبهين منفى عن الله فإن الله لا يشبهه شيء من خلقه وليس كمثله شيء وهو السميع البصير، بل الأمر كما قال الأئمة ـ منهم نعيم بن حماد الخزاعى ـ شيخ البخارى قال: من شبه الله بخلقه كفر، ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر، وليس فيما وصف الله به نفسه نفسه، ولا رسوله تشبيه، فمن أثبت لله ـ تعالى ـ ما وردت به الآيات الصريحة والأخبار الصحيحة على الوجه الذى يليق بجلال الله، ونفى عن الله ـ تعالى ـ النقائص فقد سلك سبيل الهدى[1].

فالعرش الوارد فى قوله: ﴿ويحمل عرش ربك﴾، نسلِّم بوجوده وأنه موصوف بما وصفه الله به فى كتابه من أنه عرش كريم، وعظيم ومجيد، ولكن عقولنا لا تصل لتصور حقيقته، فنحن نؤمن به كما جاء فى كتاب ربنا وسنة نبينا ﷺ.

بقى أن نعرف كيف عبرت الكلمات عن العرش فى هذا السياق القرآنى، إنها حين اختارت الفعل المضارع: «ويحملُ» صورت لنا صورة شاخصة كأننا نراها رأى العين، وهذه الصورة تلقى فى النفس ألوانًا من الترهيب والتخويف مشوبًا بالإجلال لهذا المشهد المهيب، مشهد الملائكة تحمل عرش الرحمن، ويأتى التعبير بالعرش، ليلفت النظر إلى عظمة الله وسعة ملكه، ومع أننا ذكرنا أن

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٢/ ٢٢٠).

العرش حقيقة نؤمن بها ونفوض كنهها وهيئتها إلى الله إلا أنه حين يقال عرش ربك أو عرش الرحمن أو العرش، فإن الذهن ينصرف إلى ما تحمله الكلمة من عروش الملوك وأسرة الملك وأبهته، ولعلنا نذكر فى قصة بلقيس ملكة سبأ فى سورة النمل قول الله على لسان هدهد سليمان: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾، وقوله - تعالى - على لسان سليمان: ﴿قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾﴾ وقوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ...﴾[1] فلما أضاف العرش إلى الربوبية زاد ذلك تعظيمًا وتفخيمًا، فالربوبية: هيمنة واقتدار، ونعمة وعطاء، والمخاطب فى قوله: ﴿عرش ربك﴾ كل من يتأتى له الخطاب، أو هو محمد ﷺ تشريفًا له وتكريمًا، وفى توجيه الخطاب لكل من يتأتى له الخطاب إيقاظ للمشاعر، وتنبيه للغافل لأنه لا يخاطب من خلال خطاب جماعة إنما هو خطاب له هو فهو المعنِيُّ بالخطاب، وفى توجيهه لرسول الله ﷺ تطمين له وإيناس وتأكيد لما يعرفه ويؤمن به ويثق فيه من ربوبية الله له وكرم عطائه وفيض جوده، وكأنه من خلال هذا الخطاب يقول له: لا تحزن فأنا ربك الذى ربيتك على موائد كرمى ولن أضيعك ولن أتركك لحماقات الحمقى من المكذبين لك، المعاندين لرسالتك، ويأتى اختيار الفوقية لتدل على التمكن من حمل العرش، وكان يكفى: ويحمل عرش ربك ثمانية، لكن قوله: «فوقهم» جاء تأكيدًا لهذا الحمل وكما يقول العلامة الألوسى: وفائدة «فَوْقَهم» الدلالة على أنه ليس محمولاً بأيديهم كالمعلق مثلاً...» ولكن لماذا قدم «فوقهم» على «ثمانية» ولم يقل «ويحمل عرش ربك يومئذ ثمانية فوقهم» فنعرف أن الفوقية إنما هى لهؤلاء الثمانية؟ وهذا ما دعا بعض المفسرين إلى أن يجعل مرجع الضمير فى قوله: فوقهم إلى الملائكة الذين سبق ذكرهم فى قوله: والملك على

(١) اقرأ هذه الآيات فى سورة النمل ٢٧ ـ فى قصة سليمان والهدهد وبلقيس ملكة سبأ.

أرجائها،وقيل فوق العالم كلهم، ولو قيل بهذا لما بقى لقوله: ثمانية معنى فالأولى أن يقال بأن الذى يحمل العرش هم هؤلاء الثمانية، ولعلك تلحظ معى أنه لم يذكر لنا المراد بالثمانية ليبقى اللفظ هكذا عامًا يؤدى دوره فى إكمال صورة الترهيب والتخويف. ولذلك قال الحسن: الله أعلم كمْ هم: أثمانية صفوف أم ثمانية أشخاص، وإن كان المتبادر أنهم ثمانية من الملائكة الله أعلم بحقيقتهم، فقد وردت روايات كثيرة فى بيان أشكالهم وصورهم وقدراتهم حتى قال أبو حيان: ذكروا فى صفات هؤلاء الثمانية أشكالاً متكاذبة ضربنا عن ذكرها صفحا...»[١].

وإذا قيل بأنهم ثمانية من الملائكة، فهل هم ثمانية ملائكة، أو ثمانية صفوف من الملائكة لا يعلم عدتهم إلا الله، والظاهر أنهم ثمانية ملائكة، وقد وردت الآثار تبين أن حملة العرش أربعة ويوم القيامة ثمانية، ولذلك قيل بأن العرش الذى يحمله هؤلاء الثمانية هو عرش الله الذى يحمله هؤلاء إلى أرض المحشر للفصل بين الخلائق. ولذلك قال: ﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴾.

ولعلنا نذكر أننا وقفنا عند قوله: «يومئذ» ورأينا ما تعنيه الكلمة فى موضعها ولماذا ذكرت أربع مرات فى أربع آيات متوالية تراها فى قوله: «فيومئذ وقعت الواقعة، وانشقت السماء فهى يومئذ واهية، والملك على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية، يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافة» وفى كل مرة يأتى التنوين فيها عرضًا عن المضاف، ويأتى التذكير باليوم الذى حدث فيه الحدث دالاً على عظم هذا اليوم بكل ما فيه من أحداث جسام وأهوال عظام، والآية بعد ذلك جواب عما سبق، بمعنى أنه إذا حدثت هذه المقدمات من النفخ فى الصور وحمل الأرض والجبال ودكهما دكة واحدة وانشقاق السماء وتصدعها وتفرق الملائكة على أرجائها وحملت الملائكة عرش الرحمن

(١) البحر المحيط لأبى حيان ، المجلد الثامن ص٣٢٤.

لأرض المحشر والحساب ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا (٢٢) وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإِنسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى (٢٣)﴾ [الفجر: ٨٩/ ٢٢، ٢٣]، وهنا يأتى الجواب بقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لا تَخْفَى مِنكُمْ خَافِيَةٌ (١٨)﴾، وتأمل ما سبق من قوله: ﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (١٥)﴾ وليس هذا هو الجواب الأخير، إنما هذا جواب فى جملة أحداث يوم القيامة، أى كأنه قال إذا حَدَث هذا فقد قامت القيامة، ثم انتقل إلى باقى ما تحدثه فى الكون بالحديث عن السماء وما ينزل بها من أمر الله، فإذا بها وقد انشقت ووهت وتناثرت أجزاؤها ووقفت الملائكة على أرجائها، وحملت الملائكة الثمانية عرش ربك ليوم القضاء، حينذاك يكون الحساب والجزاء: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لا تَخْفَى مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾، والآيات بهذا السياق وذلك الترتيب تلقى فى النفس كما ذكرنا ألوانًا عظيمة من الترهيب من القيامة وأهوالها، فنسأل الله السلامة والعافية، ولنقف نلتقط بعض ما يفتح الله به من المعانى فى كلمات الآية.. فمن بدايتها تبدأ بقوله: «فيومئذ»، لتلفت الإحساس والمشاعر والعقول إلى هول تلك الأحداث الرهيبة التى تجسدت فى هذا الفناء الذى أصاب الأرض والجبال والسماء، ويأتى الفعل المضارع: تعرضون، خطابًا لكل الناس فى كل زمان ومكان، من لحظة نزول الآية إلى آخر لحظات الحياة، ويأتى هكذا يرسم صورة لأفواج البشر التى توافدت لأرض المحشر للعرض على الملك الذى لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء. وفى اختيار كلمة العرض، ومجيئها فعلاً مضارعًا مبنيًا للمجهول، ما يؤكد ما سيقت الآيات له من التخويف والزجر، فالعرض يذكرنا بعرض الجنود على الأمير والسلطان لينظر فى أمرهم فيجازى المحسن ويكرمه ويعاتب المسيء ويؤنبه، وقد ورد الخبر أن فى القيامة ثلاث عرضات: عرضتان للاعتذار والتوبيخ والثالثة فيها تنشر الكتب وصحائف الأعمال فهذا أخذ كتابه

بيمينه وذاك أخذ كتابه بشماله، ولو تأملنا فيما جاء من كلمة العرض فعلاً مضارعًا فى القرآن الكريم لوجدنا أنها دائمًا تأتى مبنية للمجهول. وفيها يكون العرض على الله أو على النار كما قال ـ تعالى ـ: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ﴾ [الأحقاف: ٢٠]، وكماقال: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ [غافر: ٤٦]، وقال: ﴿أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ [هود: ١٨] وفى الماضى يقول: ﴿وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الكهف: ٤٨]، ويقول: ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾﴾ [الكهف: ١٠٠]، وإنما يكون عرضهم على الله لمحاسبتهم، وعرضُهم على النار: إبرازها لهم لتزداد حسراتهم وندمهم، والذى يعرضهم هو الله ـ عز وجل ـ بما يصدره من أوامر لملائكته، وبما يكون هناك من نفخ إسرافيل فى الصور لجمع الناس لرب العالمين، وبما يكون هناك من نار تسوق الناس إلى أرض المحشر إلى غير ذلك مما أخبرنا به رسولنا صلوات الله وسلامه عليه.

فحين يقول: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ﴾، دون أن يذكر الفاعل يتركك تتخيل كل هذا الذى سيأتى بالخلائق صفوفًا ليعرضهم على رب العزة والجلال، قال ـ تعالى ـ: ﴿وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾﴾ [الكهف: ١٨/٤٨].

أما قوله: ﴿لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾﴾.. فهذا تصوير للحال الذى يكون عليه الناس يوم القيامة أمام ربهم، لأنك لو تخيلت أجيال البشرية من لدن آدم إلى آخر واحد يولد فى هذه الدنيا ومدى كثرة هذه الأعداد، وما يضاف إليها من المخلوقات الأخرى، وأن هؤلاء جميعا يتزاحمون فى أرض المحشر أمام أسرع

الحاسبين يحاسبهم، لو تخيلت هذا ربما توهمت أنه فى هذا الزحام قد يَخْفَى بعضُ الناس أو تغيبُ بعضُ ما حملت القلوب، وما اكتسبت الجوارح فى الدنيا فيأتى قوله: ﴿لا تَخْفَىٰ منكُمْ خَافِيَةٌ﴾. تزيل هذا الوهم وتبين أن من يعلم السر وأخفى، لا يخفى عليه فى هذا المشهد العظيم أحد، ولا يخفى عليه سر من أسراركم ولا أمر من أموركم فيحاسبكم على القليل والكثير منه ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء:٤٧]، ﴿يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦) الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (١٧)﴾ [غافر:١٦-١٧]، ولعلك تلمح ما فى ذلك من التهديد والوعيد، قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ (٩) فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلا نَاصِرٍ (١٠)﴾ [الطارق:٩-١٠]، وليس هذا العرض عليه سبحانه ليعلم ما لم يكن عالما به، وإنما هو عرض الاختبار والابتلاء والتوبيخ للمكذبين، وإذا كان هذا فى بيان علم الله الدقيق بما تحمله السرائر، وأنه سبحانه لا تخفى عليه من هؤلاء خافية، مهما دقت، وخفيت، كما رأينا فى قوله: «لا يخفى على الله منهم شىء»، أى شىء، فهى أيضا تدل على أنهم جميعا بارزون لربهم ليس هناك فى أرض المحشر ما يسترهم ولا ما يستترون به من جبال أو وهاد أو سراديب، أو بيوت أو نحو ذلك، قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (٤٨)﴾ [إبراهيم:٤٨]. وفى الحديث عن سهل بن سعيد - رضى الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرصة النَّقِىِّ ليس فيها علم لأحد» أخرجه البخارى ومسلم، ومعنى عفراء: أى بيضاء، والنقى: الخبز الأبيض من الدقيق الفاخر، فإذا ما اجتمع الناس فى أرض المحشر، وبدأ الحساب بالجدال والمعاذير، ثم تتطاير الصحف، صحف الأعمال فآخذ كتابه بيمينه وآخذ كتابه بشماله - نسأل الله

العافية - روى الإمام أحمد بسنده عن أبى موسى الأشعرى - رضى الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات، فأما عرضتان فجدال ومعاذير، وأما الثالثة فعند ذلك تطير الصحف فى الأيدى فآخذ بيمينه وآخذ بشماله»[1]، ولعلنا نلحظ فى ترتيب أحداث يوم القيامة فى آيات السورة أنها بدأت بالنفخ فى الصور، وانهدام النظام الكونى، فى أرضه وسمائه، وانتشار الملائكة على أرجاء السماء، ومجىء رب العزة والجلال للفصل بين عباده، ووقوف هذه الجموع الحاشدة من الخلائق لا تخفى منهم خافية، وتطاير الصحف فى الأيدى فهذا آخذ لكتابه بيمينه وذاك آخذ كتابه بشماله، وهذا كله من خلال آيات قلائل، وكلمات معدودات، دون الوقوف على تفاصيل كل حدث من هذه الأحداث والذى تراه فى آيات طويلة من كتاب الله، وما ذلك إلا للوصول إلى الهدف من سياق الآيات وهو محاصرة النفس البشرية ودفعها إلى طريق تبحث فيه عن النجاة، وهى فى سبيل ذلك تستهل الصعب وتتحمل المشاق وتغذ السير، وتبذل قصارى الجهد، وتضحى بالغالى والنفيس الذى يصل إلى التضحية بكل أعراض الدنيا بل إلى أن يجود الإنسان بنفسه وروحه ودمه فى سبيل ربه طلبا للنجاة، والفوز الأكبر، ناظرا بعين البصيرة التى تكشف له الحقيقة إلى دنياه فيراها أياما معدودة ولحظات محدودة وأنفاسًا تخرج وقد لا تعود، وتعود وقد لا تخرج، فلا يغفل ولا ينسى ولا يتوانى ولا يقعد، يظمئ نهاره. ويسهر ليله، ويجود برًا وخيرا وفضلا، ويشع نورا يهدى السائرين، قُدْوتُه مصباحه المنير، رسوله السراج المنير صلوات الله وسلامه عليه، إمام الأنبياء والمرسلين، ومعه دليله من كتاب ربه وسنة رسوله ﷺ، وهذا بتوفيق من ربه سيصل إلى غايته، ويحظى بطلبته.

* * *

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٤١٤).

٦ - حال السعداء فى يوم القيامة

يقول ـ تعالى ـ: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ (١٩) إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ (٢٠) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ (٢١) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (٢٢) قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ (٢٣) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ (٢٤) ﴾ [الحاقة: ١٩ ـ ٢٤].

كثيراً ما يعرض القرآن لحال السعداء ثم يُتْبِعُه بعرض حال الأشقياء ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حى عن بينة، وليختار كل إنسان ما يقتنع به، وعليه أن يتحمل مسئولية اختياره قال تعالى: ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ [الكهف :٢٩]، وقال: ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٥٦) ﴾ [البقرة:٢٥٦].

وهنا فى سورة الحاقة بعد أن عرض سريعا لمواقف يوم القيامة من أول النفخ فى الصور إلى موقف الحساب عرض صورة واضحة للمكرَّمين المكرِّمين، وصورة أخرى للبؤساء التعساء، فلنقف عند الصورة الأولى لنرى كيف عبرت عنها الحروف والكلمات، يقول ربنا: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ (١٩) إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ (٢٠) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ (٢١) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (٢٢) قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ (٢٣) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ (٢٤) ﴾... وقد بدأ بالسعداء الناجين لفضلهم ومنزلتهم ومكانتهم من ربهم، وساق الحديث هنا وهناك لا من خلال المجموع الذين قال فيهم: ﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴾، وإنما ساقه هكذا مفردا فقال: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴾ ثم قال: ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ ﴾... وهكذا يفعل إذا ما تحدث عن ذلك فى القرآن الكريم اقرأ فى ذلك

فى الإسراء: ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾ ويقول أيضا: ﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَٰئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾﴾... فإتْيانُ الكتاب فى هذا الموضع بصفة شخصية والقراءة بصفة جماعية، بمعنى أن كل واحد بعد أن أخذ كتابه، أخذ يقرأ ما فيه، تنظر إليهم فترى جمعا حاشدا كل منهم ممسك بكتابه يقرأون ما فى كتبهم لا يظلمون فتيلا. واقرأ فى الانشقاق قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ ﴿٦﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾﴾.. وكم فى هذا الأسلوب من فزع للقلوب، حين تنطق الآيات فترى أمامك كل فرد من بنى الإنسان موقوفا فى هذا المشهد الحافل بعد أن عرض على ربه فجادل واعتذر وظن أنه ناج وجد كتابا يتطاير ويقع فى يده وقد سجل فى هذا الكتاب كل ما عمل من خير وشر وحسنات وسيئات، فياله من موقف تقشعر منه الجلود وتخشع له الأبصار، وتفيض العبرات خوفا وإجلالا.. وفى الإسراء ترى أن الذى أخرج هذا الكتاب هو الله جل جلاله كما قال: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾.. ولكنه هنا وفى «الانشقاق» بنى الفعل للمجهول فيقول: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ﴾... لأن المقصود فى السياق هو إتيان الكتاب لقراءة ما فيه، وفى ذلك مسارعة لتحقيق هذا المقصد.. وإتيان الكتاب، وما سجل فيه، وبأى لغة كُتب؟ وهل من لم يتعلم القراءة والكتابة فى الدنيا سيقرأ؟ وكيف؟ كل ذلك غيب لا يعلمه إلا الله. وعلينا أن نفوض ذلك لعلام الغيوب، والله بقدرته سيخرج لكل إنسان كتابه بلغة لا يعلمها إلا الله. ويعطى هذا الكتاب

للإنسان ويقول له أو تقول ملائكته: ﴿اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا﴾، والله الذى أمره بذلك أعطاه القدرة على القراءة كما أعطاه القدرة على النطق والحركة، وإن لم يكن فى الدنيا قارئا ولا كاتبا، وأخْذُ الكتاب باليمين أو بالشمال صورة حقيقية ذكرها ربنا ولا داعى لصرف اللفظ عن ظاهره وأن اليمين كناية عن القوة واليسر والخير، والشمال كناية عن الضعف والعسر والشر، إذ لا مانع من حمل اللفظ على حقيقته وأن هناك من يأخذ كتابه بيمينه وهنالك من يأخذ كتابه بشماله.. فماذا يقول هؤلاء وأولئك؟ إن من أوتى كتابه بيمينه يقول: ﴿هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ﴾ إلى آخر ما يقول: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ﴾ إلى آخر ما يقول وما ينزل به من بلاء. إن الفاء فى قوله: «فيقول» توحى بأنه ينطق بهذا بمجرد أن يؤتى كتابه بيمينه، وكأنك ترى شخصا حمل إليه البريد رسالة كان ينتظرها، فلما فض غلافها ونظر سريعا إلى ما تحمله من خبر سار وسعيد أخذ يصيح على رفاقه وأحبابه هلموا، أقبلوا خذوا فاقرأوا كتابيه، وهو يقرأ معهم وهم يطالعون معه ما فى كتابه من فوز وخير ونجاح ومنزلة، إنه يكاد يطير فرحا هنا وهناك شاكرا نعمة الله عليه، معترفا بفضله، والأحاديث فى هذا المقام تبين أن هناك فترة من الوقت تسبق هذا النداء بعد أن يعطى كتابه بيمينه، روى ابن أبى حاتم عن أبى عثمان قال، المؤمن يعطى كتابه بيمينه فى ستر من الله فيقرأ سيئاته، فكلما قرأ سيئة تغير لونه حتى يمر بحسناته فيقرؤها فيرجع إليه لونه ثم ينظر فإذا سيئاته قد بدلت حسنات قال فعند ذلك يقول: هاؤم اقرأوا كتابيه، وعن عبد الله بن عبد الله بن حنظلة «غسيل الملائكة» قال: إن الله يوقف عبده يوم القيامة فيبدى «أى يظهر سيئاته» فى ظهر صحيفته، فيقول: أنت عملت هذا؟ فيقول: نعم أى رب، فيقول له إنى لم أفضحك به وإنى قد غفرت لك فيقول عند ذلك: هاؤم اقرأوا كتابيه، إنى ظننت أنى ملاق حسابيه» حين نجا من فضيحته يوم القيامة» وفى الصحيح من حديث

ابن عمر حيـن سئل عن النجوى فقال: سمـعت رسول الله ﷺ يقول: «يدنى الله العبد يوم القيـامة فيقرره بذنوبه كلها حتى إذا رأى أنـه قد هلك، قال الله تعالى: إنى سترتها عليك فـى الدنيا وإنى أغفرها لك اليوم، ثم يعطى كتـابه بيمينه، وأما الكافر والمنافق فيقـول الأشهاد: هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين[1] ومع وجود هذا قبل أن يقول: هاؤم اقرأوا كتّـابيه، ترى الفاء المعبرة عن هذا القول وكـأنه قد وقع بمجرد أن أعطى كـتابه بيمينه، كمـا ترى مثل ذلك فيـما يكون من أمر غيـر المؤمن الذى يقول ياليـتنى لم أوت كتابيـه، ولم أدر ما حسابيـه، ويأتى التعبير بالمضـارع فى قوله: «فيقول» فى الموضـعين يصور لك صورةً لإنسان يردد هذا القـول معلنا عن فرحته فى الصـورة الأولى وعن حسرته وحزنه فى الصورة الثـانية، كما يأتى التـعبير بقوله: هاؤم، هـكذا فريدا فى القرآن لم يذكر إلا فى هذه السورة سورة الحاقة وهى كلمة وضعت لإجابة الداعى عند النشاط والفرح، وأصلها هاكم فأبدلت الهمزة من الكاف ومعناها: تعالوا، وقيل: هَلُمَّ وقيل: خذوا وهـى فى كل ذلك طلب يدل على السرور والبهجـة والسعادة، والسرور والبـهجة تكتمـلان بمشاركة الأهل والأحـباب، ولذلك طلب منهم أن يقرأوا كـتابه ليروا مـا فيه من نجـاة وفوز، وكثـيرا ما يريد الإنسـان الذى نبئ بما يسره أن يشـاركه أى أحد يعـرفه أو لا يعرفه، إنه لشـدة ما استـولى على وجدانه ومـشاعـره من السعـادة تراه يتنقل بين من حـوله من الناس يناديهم أن يشاركـوه فرحته وسعادته، وهذه هى الجموع الحاشدة من البشر فى الموقف العصيب، فى يوم التغابن، ترى أناسا طارت كتبـهم وسقطت فى أيمانهم فلما تناولوها وقرأوا ما فيهـا طاروا فرحا وسرورا، وأخذ ينادى كل منهم من يلقاه: اقـرأوا كتابيه، إنى ظننت أنى ملاق حسابيه.

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم: لابن كثير ٤/ ٤١٥.

وفى قوله: «اقرأوا كتابيه» نلاحظ أمرين: الإظهار فى مقام الإضمار، ومجىء هاء السكت فى «كتابيه» كما تراها فى «حسابيه، وماليه، وسلطانيه» والإظهار يدل على ما فى الكتاب من الأمور التى تستحق الإظهار، وكان مقتضى السياق أن يقول: فأما من أوتى كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرأوه، وأما من أوتى كتابه بشماله فيقول يا ليتنى لم أوته، ولكن ما فى الكتاب من أمارات الغفران أو الخسران جعلت كلا منهما يظهر ويؤكد ويذكر هذا الكتاب الذى خرج له ووقع فى يده فرأى فيه ما يدعو إلى الفرح أو يدعو إلى الحزن، وتأتى هاء السكت، تمد الكلمة مدا يعبر عما فى النفس من هذا وذاك، كما يقول: إنى ظننت أنى ملاق حسابيه، والظن هنا هو اليقين، قال مجاهد: ظن الآخرة يقين، وظن الدنيا شك، وقال الضحاك: كل ظن فى القرآن من المؤمن فهو يقين، ومن الكافر فهو شك، أو الظن على ظاهره، لأنه فى الدنيا عمل أعمالا من البر والخير ولكنه غير متيقن من نجاته، وأنه فى الآخرة سيلقى جزاءه، ولو أن الله حاسبه لعذبه، فظنه ليس ظنا وشكا فى لقاء الله، واليوم الآخر لأن هذا كفر، وإنما ظنه فى نجاته يوم اللقاء، وهل ما قدم من أعمال صالحة كانت محل القبول وإن قبلت هل تُوفِّى شكر المنعم، فهو لذلك خائف وجل، قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [المؤمنون: ٥٧-٦١]، وهذا الظن نراه فى أكثر من موضع فى القرآن من ذلك قوله: ﴿ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴿٤٥﴾ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [البقرة:٤٥-٤٦]، وقوله: ﴿ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُوا اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ [البقرة:٢٤٩]، وفى الحديث: لا يدخل أحدكم الجنة بعمله قالوا: ولا أنت يا رسول الله قال: ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله برحمته» فخوف

المؤمن من ربه جعله على حذر من عدم قبول عمله فهو يجتهد بقدر استطاعته حتى يحظى بالقبول، وهو يعلم أنه فى الآخرة مرهون بعفو مولاه، فقد علم من سنة رسوله صلوات الله وسلامه عليه أن من نوقش الحساب عذب، نعم من نوقش الحساب عذب، إذ ماذا يفيده عمله مهما بلغ، وهلِ هوَ إلا قطرة من بحر جود ربه، وتوفيقُه للعمل نعمةٌ فى حد ذاتها تستحق الشكر، فكيف به أن يوفى ربه حقه، وفى الحديث أن النبى ﷺ قال: من نوقش الحساب عذب، قالت عائشة - رضى الله عنها - لرسول الله ﷺ: أليس يقول الله تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ۝٩ ﴾ فقال: إنما ذلك العرض، وليس أحد يحاسب يوم القيامة إلا هلك، وفى رواية: وليس أحد يناقش الحساب يوم القيامة إلا عذب»، وهذا العرض هو الذى ذكرناه فى حديث ابن عمر وقول الله لعبدهٓ بعد أن يقرره بذنوبه فيعرفها فيقول له: سترتها عليك فى الدنيا وأغفرها لك اليوم.

ولعلك تلمح معى الفرق بين قوله: «إنى ظننت أنى ملاق حسابيه» وقوله: «إنى ظننت أنى محاسب على عملى» فكثيرًا ما يعبر القرآن عن موقف الحساب بأنه يوم اللقاء مع الله عز وجل، وقد يسميه الله بأنه لقاء له، أو ليوم الحساب أو لقاء الآخرة، واللقاء: توافى اثنين متقابليْن والوصول إلى الشىء، ولقاء الله يتبعه لقاء حسابه فى يوم الحساب، والكلمة توحى بأن العبدَ كأنه أرسل فى مهمة كلف فيها بما كلف فلما انتهت مهمته عاد إلى مليكه ليقدم له تقريرا عن مهمته، فليس الأمر مجرد عودة من الدنيا للآخرة، إنما هناك هذا اللقاء بين الحكيم الخبير وعباده، لقد خلقهم لعبادته كما قال: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ۝٥٨ ﴾ [الذاريات: ٥١/ ٥٦ ـ ٥٨] فلما انتهت أيامهم التى عاشوا فيها فى الدنيا رجعوا إلى خالقهم ليسألهم: ﴿ يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ

إلى ربك كدحا فملاقيه ﴿٦﴾ .. ﴾ [الانشقاق: ٨٤/ ٦]، وأهل الإيمان الحق يبذلون قصارى جهدهم استعدادا لهذا اللقاء قال تعالى: ﴿فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا﴾ [الكهف: ١٨/ ١١٠]، وقال: ﴿واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين ﴿٤٥﴾ الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم وأنهم إليه راجعون ﴿٤٦﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٤٥، ٤٦]، ومن ذلك استعدادهم للدفاع عن دين الحق، وإن قل ناصروه، وعانده جاحدوه، قال تعالى في قصة طالوت: ﴿قال الذين يظنون أنهم ملاقو الله كم من فئة كثيرة بإذن الله. والله مع الصابرين﴾ وهؤلاء الذين قالوا هذا القول هم القلة القليلة التي ثبتت مع طالوت ﴿ولما برزوا الجالوت وجنوده قالوا ربنا أفرغ علينا صبرا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين. فهزموهم بإذن الله..﴾ [البقرة: ٢/ ٢٤٩ ـ ٢٥١] والتكذيب بلقاء الله خسارة وضياع. والآيات في ذلك كثيرة تقرأ منها قول الله تعالى: ﴿قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله وما كانوا مهتدين ﴿٤٥﴾﴾ [يونس: ١٠/ ٤٥] وقوله: ﴿وقيل اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا ومأواكم النار وما لكم من ناصرين ﴿٣٤﴾﴾ [الجاثية: ٣٤]، وقال: ﴿إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون ﴿٧﴾ أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون ﴿٨﴾﴾ [يونس: ٧-٨]، ولقاء الله ليس مجرد لقاء ثوابه أو عقابه، إنما لقاء الله لقاء له على الحقيقة بما يليق بجلال ربنا وكماله، دون تشبيه أو تمثيل أو نعطيل، وهو أمل لكل المؤمنين أن ينالوا شرف لقاء الله وأن يفوزوا بلذة النظر إلى وجهه الكريم في جنات النعيم، وفي الحديث المتفق عليه عن عدي بن حاتم - رضي الله عنه - قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما منكم من أحد إلا سيكلمه الله ليس بينه وبينه ترجمان، فينظر أيمن منه فلا يرى إلا ما قدم وينظر أشأم منه فلا يرى إلا ما قدم وينظر بين يديه فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه فاتقوا النار ولو بشق تمرة». وروى البخاري ومسلم والترمذي

عن أبى سعيد الخدرى - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: إن الله - عز وجل - يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة، فيقولون: لبيك ربنا وسعديك والخير فى يديك، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى يا ربنا وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدًا من خلقك، فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: وأى شىء أفضل؟ فيقول: أحل عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم بعده أبدا.. فكل هذا لقاء الله - عز وجل - ولذلك قال من أوتى كتابه بيمينه: إنى ظننت أنى ملاق حسابيه.. ومن يقرأ آيات القرآن وأحاديث رسول الله ﷺ فيما يكون من محاورة بين الله وعباده على اختلاف أصنافهم من المؤمنين والكافرين والمنافقين يعلم تمام العلم أن هذا لقاء على وجه الحقيقة، لا يستلزم تجسيدا ولا مكانية ولا حلولا إنما هو كما أخبر ربنا، نؤمن به بما يليق بجلاله وكماله، وقد كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل دعا فقال: «اللهم لك الحمد أنت رب السموات والأرض، ولك الحمد أنت قيم السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت نور السموات والأرض، قولك الحق، ووعدك الحق، ولقاؤك حق والجنة حق، والنار حق، والساعة حق، إلى آخر ما كان يدعو به.. وهذا اللقاء بكل ما فيه من رهبة وخوف هو الذى جعل من أوتى كتابه بيمينه يظن أنه هالك إلا أنه يتغمده الله برحمته، فهو دائما فى دنياه يغلب جانب الخوف على جانب الرجاء حتى يكون هذا دافعًا دائما له لتجويد عمله، والإحسان فيه، ولو أننا عدنا إلى سيرة الأنبياء وأتباعهم والصالحين فى كل زمان ومكان لوجدناهم هكذا يغلبون جانب الخوف على جانب الرجاء، فهذا رسول الله ﷺ كان إذا صلى يسمع لجوفه أزيز كأزيز المرجل من البكاء، وفى الصحيحين عن ابن مسعود - رضى الله عنه - قال: قال لى النبى ﷺ: «اقرأ عَلَىَّ القرآن»، قلت: يا رسول الله أقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال: «إنى أحب أن أسمعه من غيرى»، فقرأت عليه سورة النساء حتى جئت إلى هذه الآية: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ

وجئنا بك علىٰ هؤلاء شهيداً ﴾ [النساء:٤١] قال: حسبك الآن، فالتفت فإذا عيناه تذرفان، وقد قام ﷺ الليل حتى تورمت قدماه. وحين قالت له عائشة - رضى الله عنها -: أتفعل هذا يا رسول الله وقد غفر الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: أفلا أكون عبدا شكورا؟ وقد قال تعالى: ﴿ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً ﴿١٠٦﴾ قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٠٩﴾ ﴾ [الإسراء:١٠٦ - ١٠٧]، وكان أبو بكر رجلا بكاء إذا قرأ القرآن وكان يقول: ليتنى كنت شعرة فى صدر مؤمن وهو الذى لو وزن إيمانه بإيمان الأمة لرجح إيمانه، ومن أوائل المبشرين بالجنة، ومثله عمر - رضى الله عنه - والذى كان يسقط من الخوف إذا سمع آية من القرآن وكان يقول: ليتنى كنت نسيا منسيا، ليت أمى لم تلدنى، وكان فى وجهه خطان أسودان من الدموع، وقال - رضى الله عنه -: من خاف الله لم يشف غيظه، ومن اتقى الله لم يصنع ما يريد، ولولا القيامة لكان غير ما ترون، ولما قرأ سورة التكوير وانتهى إلى قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴾ خر مغشيا عليه، أما أمير المؤمنين عثمان الذى كانت تستحى منه الملائكة فكان يقول: وددت أنى إذا مت لم أبعث، وهذا من شدة خوفه من الله، وقال ابن عمر - رضى الله عنهما - فى قوله: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ﴾ [الزمر: ٩]، هو عثمان بن عفان - رضى الله عنه - ومن أوصاف أمير المؤمنين علىّ - رضى الله عنه - كما يقول ضرار بن ضمرة: أشهد بالله لرأيته فى بعض مواقفه وقد أرخى الليل ستوره وغارت نجومه، وقد تمثل فى محرابه قابضا على لحيته يتململ تململ السليم «أى الذى لدغته حية أو عقرب» ويبكى بكاء الحزين وكأنى سمعته يقول: يا ربنا، يا ربنا يضرع إليه، ثم يقول للدنيا: ألى تعرضت؟ أم بى تشوقت، هيهات هيهات.. غرى غيرى، إلى آخر ما قال - رضى الله عنه -.

إن من شأن المؤمن أن ينظر إلى ذنوبه فيراها كأنها جبل يريد أن يسقط عليه لا ذبابة يقول بها هكذا وهكذا فهو دائما على حال من الخوف من ربه، وهذا الخوف هو سبيل النجاة ففى الحديث القدسى: قال الله سبحانه وتعالى: «وعزتى وجلالى لا أجمع على عبدى خوفين ولا أجمع له أمنين، إن أمننى فى الدنيا أخفته يوم القيامة، وإن خافنى فى الدنيا أمَّنْتُه يوم القيامة، قال تعالى: ﴿ أفأمنُوا مكْر اللَّه فلا يأْمنُ مكْر اللَّه إلاَّ الْقوْمُ الْخاسرُون ﴾ [الأعراف:٩٩]، وقال يحيى بن معاذ - رحمه الله -: مسكين ابن آدم، لو خاف النار كما يخاف الفقر دخل الجنة، وقيل له: من آمن الخلق غدا؟ فقال: أشدهم خوفا اليوم، ولعلكم تذكرون من حال سلفنا الصالح ما كان من أمر زين العابدين: عليّ بن الحسين - رضى الله عنه - وأنه كان إذا توضأ اصفر لونه فيقول له أهله: ما هذا الذى يعتادك عند الوضوء؟ فيقول: أتدرون بين يدى من أريد أن أقوم؟ وسئل ابن عباس -رضى الله عنه - عن الخائفين فقال: قلوبهم بالخوف قرحة، وأعينهم باكية، يقولون: كيف نفرح والموت من ورائنا ، والقبر أمامنا، والقيامة موعدنا، وعلى جهنم طريقنا، وبين يدى الله موقفنا؟ فهذا إذن ما فهمناه من التعبير بالظن فى قول من أوتى كتابه بيمينه، وأنَّه ظن عدم النجاة من يوم الحساب، واللقاء كما عرفناه لقاء المؤمن برب العزة، ليكون فى هذا اللقاء ما يكون من جدال ومعاذير، وإخراج صحائف الأعمال للعباد، ويا له من موقف عظيم، والتعبير القرآنى هنا يجعل هذا اللقاء لقاء حساب: ﴿إنى ظننت أنى ملاق حسابيه﴾، وهذا هو الذى جعله على حال من الخوف حتى ظن أنه غير ناج فى هذا اليوم، فكان أن ساقه هذا الخوف إلى الفوز بالجنة والنجاة من النار، كما قال تعالى: ﴿ فهُو في عيشةٍ راضيةٍ ﴿٢١﴾ في جنَّةٍ عاليةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُها دانيةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا واشْربُوا هنيئًا بما أسْلفْتُمْ في الأيَّام الْخالية ﴿٢٤﴾ ﴾ [الحاقة:٢١-٢٤]، وكم فى هذه الكلمات من فيض إلهى يجعلنا نشتاق إلى هذ النعيم، فلتدبر فى هذه الكلمات

المباركات، وأول ما يطالعنا: «الفاء» فى قوله: «فهو» والتى تدلك على أن ما هم فيه ترتب على مقدماته التى تمثلت فى تناول الكتاب باليمين عنوان البشرى بالفوز والفضل العميم وأن هذا كان تاليا لذاك دون فاصل زمنى تعجيلا وإدخالا للبهجة، وما أحسن الجزاء إذا كان حسنا وجاء تاليا للعمل دون انتظار، وترى ثانيا الضمير فى قوله: «فهو» بداية جملة خبرية يُشيع هذا الضمير فى بداية الجملة جوا من الإعلان والتنظيم يأتى ذلك من أن الله يخبرنا فى الدنيا عما سيصير إليه حال هذا العبد المؤمن، وأنه نال حظوته فعلا حين أخذ كتابه بيمينه فطار فرحا ينادى فى كل مكان: هاؤم اقرأوا كتابيه، إنى ظننت أنى ملاق حسابيه، ثم يأتى الخبر هكذا: فى عيشة راضية، وكلمة «فى» تدلك على انغماسهم فى هذه العيشة الراضية، وأنها أحاطت بهم من كل جانب، فأنستهم ما كانوا فيه فى الدنيا من ضيق وآلام، وقد روى مسلم عن أنس - رضى الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «يؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة، فيصبغ فى النار صبغة، ثم يقال: يا ابن آدم، هل رأيت خيرا قط؟ هل مر بك من نعيم قط؟ فيقول: لا والله يا رب، ويؤتى بأشد الناس بؤسا من أهل الجنة، فيصبغ صبغة فى الجنة فيقال له: يا ابن آدم، هل رأيت بؤسا قط؟، هل مر بك من شدة قط؟ فيقول: لا والله يا رب، ما مر بى بؤس قط، ولا رأيت شدة قط، وفى الحديث عن أنس وأبى هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «من يدخل الجنة ينعم ولا يبأس، ولا تبلى ثيابه، ولا يفنى شبابه».

ومما يؤكد هذا المعنى هو أن قوله «فى عيشة راضية» متعلق بمحذوف تقديره مستقر أو قد استقر، والاستقرار: خلود وبقاء، فإذا كان فى النعيم بلغ الغاية فى الجودة والحسن، واختيار كلمة: عيشة، والتى ذكرت هنا وفى القارعة فى قوله: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ۝٦ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ تعنى الحياة بكل ما تحمله كلمة الحياة من مطعم ومشرب وملبس ومسكن وما يتبع ذلك من

سعادة وشقاء ويرى الراغب الأصفهانى: أن العيش هو الحياة المختصة بالحيوان وهو أخص من الحياة، لأن الحياة تقال فى الحيوان وفى البارى وفى الملك»[1] وهو يعنى بذلك أسباب المعيشة من ضيق وسعة، ولذلك جاء فى القرآن: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الزخرف:٣٢]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه:١٢٤]، وقال: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف:١٠]، وأسباب المعيشة فى الآخرة من المأكل والمشرب والمسكن والملبس، لا يقاربها شىء من أسباب الدنيا، فقد بلغت من البهجة والأنس ما لا يمكن وصفه ولعل هذا هو بعض ما يعبر عنه مجىء الكلمة نكرة، ووصفها بأنها راضية، والرضا من المؤمنين لما يرونه من ألوان التكريم الإلهى، ولكن القرآن يجعل هذا الوصف للعيشة، فيقول: فهو فى عيشة راضية، من باب المبالغة الجميلة فقد سرى هذا الرضا من الراضين وهم المؤمنون إلى عيشتهم التى يعيشونها لما فيها مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، ويكفى أن تعلم ماذا يكون عليه أدنى أهل الجنة منزلة، وذلكم فيما رواه مسلم والترمذى عن المغيرة بن شعبة - رضى الله عنه - يرفعه إلى النبى ﷺ قال: سأل موسى - عليه السلام - ربه: ما أدنى أهل الجنة منزلة؟ قال: هو رجل يجىء بعدما أدخل أهل الجنة الجنة، فيقال له: ادخل الجنة، فيقول: أى رب: كيف وقد نزل الناس منازلهم وأخذوا أخذاتهم؟ فيقال له: أما ترضى أن يكون لك مثل ملك ملك من ملوك الدنيا؟ فيقول: رضيت ربى، فيقول: لك ذلك ومثله ومثله ومثله ومثله فقال فى الخامسة: رضيت ربى، فيقول: هذا لك وعشرة أمثاله، ولك ما اشتهت نفسك ولذت عينك فيقول: رضيت ربى، قال رب: فأعلاهم منزلة؟ قال: أولئك الذين أردت غرست

---

(١) انظر: معجم مفردات ألفاظ القرآن صـ ٣٦٧.

كرامتهم بيدى وختمت عليها فلم تر عين ولم تسمع أذن، ولم يخطر على قلب بشر، قال: ومصداقه فى كتاب الله - عز وجل -: ﴿فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين . . ﴾ إنها روعة ودقة التعبير القرآنى إذ جعل هذا الرضا لعيشة من أوتى كتابه بيمينه فكأن هذا الرضا الذى غمره وملأه سعادة وسرورا انتقل منه إلى ما هو فيه من عيش كريم فوُصفَتْ عيشته بأنها راضية، والرضا حالة من السعادة تغمر الكيان الإنسانى فتكسوه هالة من الإشراق والضياء، فإذا بهذا الإنسان فرح مستبشر، مشرق الوجه متهلل الأسارير كما قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ (٣٨) ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾ [عبس:٣٨-٣٩]، وكما قال: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ (٨) لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ﴾ [الغاشية:٨-٩]، وكما قال: ﴿إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (٢٢) عَلَى الأَرَائِكِ يَنظُرُونَ (٢٣) تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾ [المطففين:٢٢-٢٤]، وكما قال: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٢-٢٣]، فأى فرحة بعد هذه الفرحة، وأى سعادة بعد هذه السعادة؟ وأى متعة لكل ذرة فى كيانك وأنت تنظر إلى ربك فى جنة النعيم هذا الإله المنعم الذى أفاض عليك من نعمه فآمنت به دون أن تراه إنما آمنت بما أخبرك به من أرسله إليك والآن أنت تراه دون حجاب، تخاطبه ويخاطبك، روى مسلم والترمذى عن صهيب الرومى - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة، يقول تبارك وتعالى: تريدون شيئا أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجينا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب، فما أعطوا شيئا أحب إليهم من النظر إلى ربهم تبارك وتعالى، ثم تلا هذه الآية: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ وقد أوضح لنا ربنا أن هذه العيشة فى جنة عالية، قطوفها دانية، يقال لهم فيها: كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم فى الأيام الخالية، فلنتأمل فى هذه الآيات المباركات لنرى روعة وعظمة ما أعطاه الإله الكريم لمن أوتى كتابه بيمينه، لنسلك دربه، فنحظى بما حظى به، وإذا كان ربنا

قد بين أن من أوتى كتابه بيمينه أحاطت به السعادة من كل جانب كما فهمنا من حرف الجر «فى» من قوله: فى عيشة. وأن هذه العيشة قد بلغت منتهاها فى التكريم والعظمة كما يفيده التنكير، وأن العيشة قد سرى إليها الرضا فهى عيشة راضية فما بالك بأصحابها ومن يعيشون هذه العيشة الراضية، ومما يزيدها رونقا وبهاء أنها فى جنة عالية، والجنة دار الخلود التى وعد الله بها عباده المؤمنين، وفى مجيئها نكرة ما يفيد عظمتها وما وصلت إليه من رونق وروعة وجمال، وفى وصفها بأنها عالية ما يدلك على منزلتها ومكانتها ومكانها، فهى عالية المكان والمكانة، روى البخارى وسلم عن أبى سعيد الخدرى - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: إن أهل الجنة يتراءون «أى ينظرون» أهل الغرف من فوقهم كما يتراءون الكوكب الدرى الغابر فى الأفق من المشرق والمغرب لتفاضل ما بينهم، قالوا: يا رسول الله تلك منازل الأنبياء، لا يبلغها غيرهم، قال: بلى، والذى نفسى بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين، وقال تعالى: ﴿ لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ ﴾ [الزمر:٢٠]، وفى الحديث عن جابر بن عبد الله -رضى الله عنه- قال: قال لنا رسول الله ﷺ: «ألا أحدثكم بغرف الجنة؟ قال: قلت: بلى يا رسول الله بأبينا أنت وأمنا، قال: إن فى الجنة غرفًا من أصناف الجوهر كله، يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها، فيها من النعيم واللذات والشرف ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، قال: قلت: لمن هذه الغرف؟ قال: لمن أفشى السلام وأطعم الطعام وأدى الصيام وصلى بالليل والناس نيام» رواه البيهقى.. وروى البخارى عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «فى الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين مائة عام»..

وهذا قوله تعالى: ﴿ قطوفها دانية ﴾ يضيف صفة أخرى من صفات الجنة، وهذا الوصف يبين لك عدة أمور، كل واحد منها نعمة ونعيم، فهو يقول لك بأن

فى الجنة أشجارًا من العنب، وهذه الأشجار مثمرة، وثمرها طاب ونضج، وهو قريب من أهل الجنة يتناولونه دون جهد أو مشقة قائمين ومضطجعين، دنت لهم تلك الثمار فلا يرد أيديهم عنها بُعْدٌ ولا شوك، قال تعالى: ﴿ مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴾، وقال: ﴿ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴾، قال مجاهد: وذللت قطوفها تذليلا: إن قام ارتفعت معه بقدر، وإن قعد تذللت له «أى تدلت واقتربت» حتى ينالها، وإن اضطجع تذللت له حتى ينالها فذلك قوله تعالى: «تذليلا» وقال: أرض الجنة من ورق «أى من فضة» وترابها المسك، وأصول شجرها من ذهب وفضة، وأفنانها من اللؤلؤ الرطب والزبرجد والياقوت والورق، والثمر بين ذلك فمن أكل قائما لم تؤذه. ومن أكل منها قاعدا لم تؤذه، ومن أكل منها مضطجعا لم تؤذه..

وزيادة فى تكريم من أوتى كتابه بيمينه يقال له ولأمثاله من الفائزين: ﴿ كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم فى الأيام الخالية ﴾. والله فى الآيات السابقة كأنه يخبرنا عن هذا الذى أوتى كتابه بيمينه وكيف يكون فرحُه وما صار إليه من جنة عالية قطوفها دانية، وهنا انتقل من الغيبة إلى الخطاب فقال: كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم فى الأيام الخالية، ومع أنه ذكر الجنة وأنها عالية، وبين أن ثمارها قريبة دانية منهم فهم فى الجنة يأكلون ويشربون، إلا أنه أراد أن يشرح صدورهم وأن تزداد سعادتهم، فقال لهم كلوا واشربوا هنيئا.. قال لهم ذلك سبحانه وتعالى بعد أن حاسبهم حسابا يسيرا وتجاوز عن سيئاتهم أو قالت لهم الملائكة هذا، ولم يذكر القائل مسارعة إلى القول نفسه لما فيه من تمام النعمة وإظهار الرضا الإلهى لأهل الإيمان، والأمر فى قوله: «كلوا واشربوا»، ليس مجرد أمر بإباحة الأكل والشرب وإنما هذا أمر يحمل التكريم من الإله الكريم، كما إذا أعددت لضيف عزيز عليك مائدة تليق به، ودعوته للجلوس لتناول ما أعددت له من

طعام وشراب ثم قلت له مرحبا، تفضل، فبدأ يتناول طعامه وشرابه، ومما يزيد هذا سرورا وانشراحا هو قوله: هنيئا، وقوله: بما أسلفتم فى الأيام الخالية، أى أكلا هنيئا وشربا هنيئا، والهنيء كل ما لا يلحق فيه مشقة ولا يعقب وخامة، وقد وردت الأحاديث تبين ذلك - روى مسلم وأبو داود عن جابر - رضى الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «يأكل أهل الجنة ويشربون ولا يَمْتَخِطُون ولا يتغوطون، ولا يبولون، طعامهم ذلك جشاء كريم المسك يلهمون التسبيح والتكبير كما يلهمون النفس». وروى الشيخان والترمذى عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر، ثم الذين يلونهم على أشد كوكب درى فى السماء إضاءة، لا يبولون ولا يتغوطون ولا يتفلون ولا يمتخطون، أمشاطهم الذهب، ورشحهم المسك» الحديث، وفى توجيه الخطاب إلى من أوتى كتابه بيمينه من خلال توجيه الخطاب للمؤمنين مؤانسة ومسرَّة، فإن الفرحة تعظم دائما إذا كانت مع جماعة، وما رأيكم فيمن أقام حفل عرس وزفاف فلم يحضره أحد، وما رأيكم فيمن بشر بنجاح وخير فلم يهنئه أحد؟ ولذلك كان اجتماع أهل الجنة فى الجنة من أسباب سعادتهم، قال - تعالى -: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحجر:٤٧]، وقال: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [الدخان:٥١]، وقال: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴿١٠﴾ أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ﴿١٤﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ﴾ [الواقعة:١٤-١٦]، أما قوله «بما أسلفتم فى الأيام الخالية»، فإن معناه أنى أعطيتكم ما أعطيتكم من هذا النعيم المقيم بما سلف منكم فى الدنيا من الأعمال الصالحة، أو بما كنتم تجدونه من مشقة الصيام من الجوع والعطش من أجلى، أخرج ابن المنذر عن يعقوب الحنفى قال: بلغنى أنه إذا كان يوم القيامة يقول الله تعالى: «يا أوليائى طالما نظرت

إليكم فى الدنيا وقد قلصت شفاهكم عن الأشربة، وغارت أعينكم وخمصت بطونكم فكونوا اليوم فى نعيمكم وكلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم فى الأيام الخالية[1]، وقد سبق أن بينا أن دخول الجنة بفضل الله، وأنه لا يدخل أحد الجنة بعمله، ولكن الإله الرحيم الكريم يجعل هذا الجزاء فى مقابلة العمل، منَّةً منه وفضلا، حثا للعاملين على بذل جهدهم فى الحصول على مرضاة ربهم، وقد وعد الله مَنْ عمل بأنه يوفيه أجره ويعطه المزيد، والكريم إذا وعد وفى، ولذلك دعاه المؤمنون وتوجهوا إليه يسألونه صدق وعده فقالوا: ﴿رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾﴾ [آل عمران:١٩٤] فكان أن لبى الله نداءهم واستجاب دعاءهم كما قال: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾﴾ [آل عمران:١٩٥]، وكم يطيب لنا أن نقف عند قوله: «أسلفتم» وعند قوله: «فى الأيام الخالية» لنرى ما فى ذلك من حث على طاعة الله أملا فى الحصول على ثواب الله، فالسلف - كما يقول صاحب معجم مقاييس اللغة: السين واللام والفاء أصل يدل على تقدم وسبق من ذلك: السلف الذين مضوا ومن الباب: السلف فى البيع وهو مال يقدم لما يشترى نَسَاءً «أى مؤخرا» وأُنَاس يسمون القرض السلف وهو ذاك القياس لأنه شىء يقدم بعوض يتأخرٌ»[2] ويذكر الراغب فى مفرداته من معانى السلف: أن السلف ما قُدِّم من الثمن على المبيع، فقوله: بما أسلفتم، تشير إلى هذا المعنى، أنهم قدموا شيئا هو الأعمال الصالحة فيما مضى من أيام الدنيا، وهذا كأنه قرض لله وسلف ومقدم دفعوه ليشتروا به سلعة غالية من إله كريم يكتفى منهم بهذا المقدم ويعطيهم السلعة

(١) روح المعانى: للألوسى جـ٢٩، صـ٤٨.

(٢) انظر: معجم مقاييس اللغة: لابن فارس ٣/ ٩٥، ٩٦.

الغالية والمنحة الكريمة والجنة العالية والكرامة الباقية، فمن هذا الذى تُعْرَضُ عليه تلك الصفقة الرابحة فيرفض؟ ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة﴾ والمال ماله والأنفس ملكه، ومع ذلك يعرض شراء هذا من عبده ليمنحه دار كرامته، وفى كتاب الله نرى أن الله عز وجل - كرما منه وفضلا - استقرض عباده فقال: من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة، وقال: من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له، وله أجر كريم، وقال: إن المصدقين والمصدقات وأقرضوا الله قرضا حسنا يضاعف لهم ولهم أجر كريم، وقال: وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأقرضوا الله قرضا حسنا.. إلى غير ذلك من الآيات التى تبين أن العبد فى دنياه يتعامل مع رب كريم: يقدم العبد من خير ربه ورزق مولاه له فى وجوه الخير والبر ما يقدم، فيسمى الله هذا قرضا له، يوفيه عنده كاملا فى الآخرة، وليس هذا فى إقراض المال فحسب، وإنما فى كل ما يقدمه المؤمن من عمل الصالحات، وفى هذا دعوة للجد والاجتهاد فى الطاعة، فكل طاعة قربة إلى الله، عليها من الله الأجر الجزيل: أما قوله: ﴿فى الأيام الخالية﴾ فهى كما علمنا الأيام التى خلت أى مضت وتلك أيام الدنيا، ولم يرد فى القرآن هذا الوصف للأيام إلا هنا فى سورة الحاقة، ولكن لماذا كان هذا الوصف لأيام الدنيا بالخالية فى مثل هذا المقام، هل لأنهم أخلوا أيامهم من شهوات أنفسهم، وحظوظها، وجاهدوها حتى انقادت إليهم؟ يمكن أن يكون ذلك كذلك لأنهم فهموا عن الله ما دعا إليه من جهاد النفس والشيطان، وتعلموا من رسولهم ﷺ أن الجنة حُفَّتْ بالمكاره وأن النار حُفَّتْ بالشهوات، وأن الجنة سلعة الله الغالية وثمنها قد يتطلب التضحية بالأنفس والدماء والأرواح والمال والأهل والولد، ولم لا وقد قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾

[التوبة:٢٤]، والآيات والأحاديث في هذا كثيرة تدعو إلى أن يعمل المؤمن وأن يجتهد في تخلية أيام الدنيا وتصفيتها من نوازع النفس وجعلها لحظات ملؤها الحب لله ولرسوله والإخلاص والعمل الدءوب لاكتساب رضا الخالق جل وعلا، والتعبير «بالخالية» يلفت أنظارنا إلى ما يقابلها وهي الأيام الباقية، وعلى العاقل - وهو يستمع إلى ذلك - أن يلتفت إلى تلك الأيام الباقية فهي الدائمة أبد الآبدين، ولذلك قال قتادة في الآية: إن أيامكم هذه أيام خالية: هي أيام فانية تؤدي إلى أيام باقية فاعملوا في هذه الأيام وقدموا فيها خيراً ما استطعتم ولا قوة إلا بالله[1]. وهذه الإشارة العابرة التي نلمحها في قوله: «بما أسلفتم في الأيام الخالية»، والتي رأينا طرفا منها فيما نقلناه عن قتادة - رحمه الله -، تراها في القرآن الكريم كثيرا وهو يقارن بين نعيم الدنيا وأيامها وانقضائها وما في الآخرة من نعيم مقيم وخلود، من ذلك قوله في آل عمران: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴿١٤﴾ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٥﴾﴾ [آل عمران: ١٤-١٥]، وقوله في أواخر السورة: ﴿لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ ﴿١٩٦﴾ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلاً مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ لِّلأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾﴾ [آل عمران:١٩٦-١٩٨]، وقوله في القصص: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لاقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾﴾ [القصص:٦٠-٦١]، إلى غير ذلك من الآيات.

* * *

(١) جامع البيان: لابن جرير الطبري جـ٩، صـ٦١.

٧ - حال الأشقياء يوم القيامة

يقول ـ تعالى ـ: ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الحاقة: ٢٥ ـ ٢٩].

على طريقة القرآن فى الترغيب والترهيب نرى أن الله بعد أن ذكر حال السعداء يوم العرض عليه ثنى بحال الأشقياء فقال: ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ ﴾... الآيات، وقد عرفنا فى قوله: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴾ لماذا بنى الفعل للمجهول فى قوله: «أوتى» وكيف يؤتى الكتاب باليمين أو بالشمال، وماذا فى هذا الكتاب، وحال المؤمن وحال الكافر حينذاك، فهذا هو الوجه الثانى للحقيقة التى قد ينساها بعض الناس فتمر أيامه وهو فى غفلته فإذا به معروض أمام ربه يحاسبه عما قدم فى دنياه، فلنتابع ما صار إليه حال من أوتى كتابه بشماله كما عبرت عنه كلمات الآيات: هذه هى الفاء الواقعة جوابا لأما فى قوله: «فيقول» والتى تبين أن القول قد وقع بمجرد أن أوتى كتابه بشماله، فعلم أنه هالك فصاح قائلا: ﴿ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ ﴾، والفعل المضارع: «يقول»، يصور لك حاله من تكرار هذا القول، المرة تلك المرة، وكل واحد منهما من السعداء والتعساء، لا يكتفى بالقول مرة واحدة، إنما هكذا يقول، فمن أوتى كتابه بيمينه يقول: «هاؤم اقرأوا كتابيه، إنى ظننت أنى ملاق حسابيه» فرَحًا وسرورا، ومن أوتى كتابه بشماله يقول يا ليتنى لم أوت كتابيه، حزنا وتحسرا وألما، ومن أوتى كتابه بشماله ينادى فعلى من ينادى؟ هل ينادى أصحابه وقومه الذين أضلوه فأردوه وأهلكوه فهو ينادى عليهم ليلومهم على سوء صنيعهم، وكأنه يقول: يا قوم ليتنى لم أوت كتابيه أو ينادى أهل الموقف لينظروا ما صار إليه حاله من التعاسة والشقاء والضياع، أو هو لا يقصد نداء إنما هكذا يصيح بنفسه ولنفسه يتقطع حسرات

على ما فرط في جنب الله: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإِنسَانُ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾﴾ [الفجر:٢٣-٢٦]، وقد جاء بحرف النداء «يا» وهو حرف موضوع لنداء البعيد، فهو ينادى من بَعُدَ فضلا عمن قرب، كما ينادى به فى الأمر المهم والحادث الجلل، ولم يناد فى القرآن إلا بهذا الحرف، وهل هناك أمر أعظم من هذا الذى الذى صار إليه حال هذا البائس فى ذله وحسرته، ولذلك جاء بحرف التمنى دون الترجى، جاء بقوله: «ليتنى» وليت حرف يدل على التمنى وهو إنما يكون فى الأمر المستبعد الحصول، أما الترجى والذى يعبر عنه بـ «لعل» فهو فى الأمر الممكن الحصول، فهل فى الإمكان أن لا يؤتى كتابه بشماله؟ لقد عاش أيام دنياه غارقا فى شهواته، منصرفًا عن ربه، سادرًا فى غيِّه، لا يستجيب لنصح الناصحين، ولا يفىء إلى الحق، بل ربما عاند المرسلين والمصلحين وعاداهم وأخذ يحاربهم ويطاردهم، لقد عمى عن الطريق، وضل السبيل، ولم يؤد حق الله عليه: ﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَٰئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً ﴿٧١﴾ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلاً ﴿٧٢﴾﴾ [الإسراء:٧١-٧٢]، وماذا تفيد الأمنيات فى هذا الموقف إلا أن تكون سياطا تلهب المشاعر بالحزن والأسى، وعنوان ندم على ما كان منه: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً ﴿٢٧﴾ يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلانًا خَلِيلاً ﴿٢٨﴾ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولاً ﴿٢٩﴾﴾ [الفرقان:٢٧-٢٩]، وسوف نجده يقول فيما يقول: يا ليتها كانت القاضية: ليت وهل ينفع شيئا «ليت»؟ فليتك يا هذا أعددت للأمر عدته وعدت من قريب إلى من خلقك فسواك فعدلك وأنعم عليك بجلائل نعمه، وأرسل إليك رسله وأنزل إليك كتبه، ولكنك لم تفعل فجئت تتجرع كئوس الحسرات، وفيمن أوتى كتابه بيمينه رأيناه يظهر فرحته، ويدعو أصحابه بل وأهل الموقف ليقرأوا كتابه فيفرحوا لفرحه، ولكننا فيمن أوتى كتابه بشماله

لا نرى ذلك، إنما نرى إنسانا يتألم وينادى بكل ما فيه من ألم وحزن: يا ليتنى لم أوت كتابيه ولم أدر ما حسابيه، يا ليتها كانت القاضية..

وهذه هاء السكت فى كتابيه، وحسابيه، وماليه، وسلطانيه، وهى تعطى للكلمات جرسا خاصا، يعبر عن مكنون النفس وما تفيض به من ألم، حين عاين ما صار إليه حاله من الهلاك والضياع فقال: يا ليتنى لم أوت كتابيه، ولم أدر ما حسابيه، إنه يتمنى أنه لم يعط كتابه لما رأى فيه من قبح أفعاله وعظم ذنوبه، كما تمنى أنه لو بقى حسابه مجهولا مستورا لا يعرفه ولا يطلع عليه، لأنه حين رآه وعلمه وتأكد منه لم يبق له عذر عند ربه، فهذا كتابه سودته الذنوب، فماذا هو قائل لمولاه فى هذا الموقف العصيب، ولذلك تمنى أن لو كانت موتته التى ماتها كانت هى النهاية فلم يبعثه، أو أنه يتمنى أن لو كانت هذه الحالة التى شاهدها وعاينها بكل ما فيها من حسرات وآلام فاقت ما لقيه من آلام وهو يعالج سكرات الموت فى الدنيا، ليتها كانت النهاية القاضية لآلامه، فلا يسأل عن شىء بعد ذلك، ثم أخذ يلتفت إلى ما كان له فى الدنيا من مال وجاه وسلطان، ليجد أن ذلك كله لم تعد له فائدة، وأنه بكل ما أوتى من ذلك لا يستطيع أن يدفع عن نفسه عذاب الله، «ما أغنى عنى ماليه، هلك عنى سلطانيه» وفى قوله: «ما أغنى عنى ماليه» معنيان، المعنى الأول: أن هذا استفهام إنكار وتحسر، يسأل نفسه أو من حوله قائلا ما فائدة ما كنت قد امتلكته من أموال هل أغنت عنى شيئا؟ والمعنى الثانى هو تقرير حقيقة رآها وعاينها فهو يذكرها أسفا وندما قائلا: ما أغنى عنى ماليه، أى لم أستفدْ شيئا مما جمعته وأنفقت فيه عمرى، إنه لم يرد عنى ما نزل بى من ألمْ وعذاب، وفى قوله: «ماليه» احتمالان: الأول أنها كلمة واحدة هى المال أضيفت له هاء السكت أى ما نجانى ولا أنقذنى ولا أفادنى ما كنت قد امتلكت من مال جمعته لم أبال شرعا ولا دينا، وحرمت منه الفقراء والمساكين ومنعت حق الله فيه، وهذا مناسب لقوله: «هلك عنى سلطانيه»، على أن السلطان هو الحكم بما فيه من أتباع وجنود وكلمة مسموعة، فلا المال

نفع ولا السلطان دفع، والاحتمال الثانى. أن ماليه معناها ما كان لى فى الدنيا من الأشياء الكثيرة مما امتلكه، من دور ومال ومتاع وأشياء كثيرة يمتلكها من يمتلكها فتكون له، ويظن أنه مخلد فى الدنيا فلا يقنع بشىء وكلما امتلك شيئا بحث عن آخر من كل ألوان الممتلكات. والمؤمن لا يحرم من امتلاك أعراض الدنيا، ولكنه إن امتلكها امتلكها من مصادرها التى أحلها الله، وحين امتلكها أدى حق الله فيها فكانت فى ميزان حسناته وبدت مشرقة فى كتابه، وكانت سعادة له فى الدنيا وزادا له فى الآخرة، وإلا لو قيل بأن المؤمن الحق هو الذى يزهد فى الدنيا فلا يمتلك منها شيئا، فمن أين تدفع الزكوات والصدقات، وكيف تقام نهضة الأمة الحضارية فى البناء والتعمير والتعليم وإعداد المجاهدين وتربية الأبناء وما إلى ذلك أما الكافر فهو حين يمتلك ذلك لا يبالى بالوسائل التى يأتى منها وبها ما امتلك من كل ما حرمه الله عبر القرون فى تاريخ النبوات والرسالات وإن امتلك ما امتلك لا ينظر إلى إنفاقه منه ليضبطه على ميزان شرع الله وهديه، فهو ينفق منه لا يبالى بشرع ولا خلق ولا دين. وهو الآن جاء يتحسر ويقرر أن كل ما امتلكه وما كان له لم يغن عنه شيئا، وكم يتمنى الكافر فى هذا الموقف أن يفتدى نفسه من عذاب الله بكل ما كان له فى الدنيا ولكن الله يقول: ﴿ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الزمر:٤٧]، ويقول: ﴿ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾ [يونس:٥٤]، ويقول: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَىٰ بِهِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٩١﴾ ﴾ [آل عمران:٩١]، فهل يعقل ذلك الظالمون.

وكأنى بك وقد سمعت ما قاله: ﴿ مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ ﴾ إلى أن قال: ﴿ مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ ﴾، تتساءل ثم ماذا؟ إذا كان ما امتلكه لم يغن عنه شيئًا فماذا

عن سلطانه وصولجانه وقوته؟؟ هنا تأتيك الإجابة فى قوله: ﴿ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ (٢٩) ﴾.

والظاهر من الآية أن السلطان هو سلطان القوة، تلك التى تدعو أصحابها إلى الكبر والتعالى حتى ليظنوا أنهم حين امتلكوا القوة أصبحوا غير محاسبين على أفعالهم وأنهم قادرون على أن ينالوا وأن يحققوا كل رغباتهم وشهواتهم، فأعماهم السلطان، فلم يستجيبوا لنصح الناصحين، ولم يفيئوا للحق، ولم يتفيأوا ظلال الرحمات والبركات فى الشريعة الهادية والدين القويم، والإسلام لا يدعو أتباعه إلى التجرد من القوة، وترك الدنيا يحكمها الجهلة والسفهاء والحمقى ومن لا دين لهم، إنما يدعوهم إلى الزهد فى الحكم والسلطان لما له من تبعات ومسئوليات جسام عند الله، حتى ليسأل الحاكم عن طريق غير ممهد فى مكان ناء من دولته لِمَ لم يسو هذا الطريق للمارة والسيارات ونحوها، ولعلنا ما زلنا نذكرُ مقولة أمير المؤمنين الفاروق عمر بن الخطاب - رضى الله عنه -: لو أن بغلة عثرت بالعراق لسئلتُ لِم لَم تسو لها الطريق يا عمر، وحسبك فى هذا الأحاديث الكثيرة التى تبين عظم مسئولية من ولى أمرًا من أمور المسلمين ومن ذلك ما رواه البخارى ومسلم عن معقل بن يسار - رضى الله عنه - قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من عبد يسترعيه الله - عز وجل - رعية يموت يوم يموت وهو غاش رعيته إلا حرم الله - تعالى - عليه الجنة»، وفى رواية: «فلم يُحطْهَا بنصحه لم يَرحْ رائحة الجنة». ومن ذلك أيضًا ما رواه مسلم عن أبى ذر - رضى الله عنه - قال: قلت يا رسول الله ألا تستعملنى (أى ألا تجعلنى عاملاً على بعض ما ولاك الله) قال: «فضرب بيده على مَنْكِبِى، ثم قال: «يا أبا ذر، إنك ضعيف، وإنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزى وندامة إلا من أخذها بحقها وأدى الذى عليه فيها». وروى البخارى ومسلم عن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «إنكم ستحرصون على الإمارة وستكون ندامة يوم القيامة، فنعمت المرضعة وبئست الفاطمة». ومع ذلك فقد يكون من الواجب أن يتولى

أمر العباد رجل عادل، ومن وجد فى نفسه القدرة على ذلك، عليه ألا يبخل على أمته بتلك القدرات إنما شأنه شأن يوسف ـ عليه السلام ـ حين قال للملك.. ملك مصر: اجعلنى على خزائن الأرض إنى حفيظ عليم. وهو بعدله وحرصه على أمته من أول السبعة الذين يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله، ومن الثلاثة الذين لا ترد دعوتهم، وهو من أحب الناس إلى الله يوم القيامة وأدناهم منه مجلسًا بل إنه مع المقسطين عند الله على منابر من نور على يمين الرحمن، فإذا ما عدنا إلى قوله: ﴿ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ ﴾، وعلمنا أن السلطان هنا هو القوة التى يمتلكها أصحاب السلطان بما أتيح لهم من حكم فى الرعية وكلمة مسموعة فى كل مكان، لكنه جعل ذلك كله فى غير طاعة الله، بل هذا هو الكافر الذى لا يؤمن بالله ربًا واحدًا، فلما جاء لموقف العرض والحساب وأخذ كتابه بشماله وتحقق من نهايته البائسة صاح يقول: ﴿ مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ (٢٨) هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ (٢٩) ﴾، وانظر إلى دقة وروعة التعبير القرآنى وهو يختار كلمة «هلك» وكلمة «عنِّى» فإن هلاك الشىء كسره وسقوطه وفناؤه حتى لا يبقى منه شىء، ولذلك يقال للميت هلك، ويقال: اهتلكت القطاةُ خوف البازى (أى الصقر الذى يريد اصطيادها) رمت بنفسها على المهالك[(١)].

ويقول الراغب: الهلاك على ثلاثة أوجه: افتقاد الشىء عنك وهو عند غيرك موجود كقوله ـ تعالى ـ: ﴿ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ ﴾، وهلاك الشىء باستحالة وفساد كقوله: «ويُهْلكُ الحرث والنسل»، ويقال: هلك الطعام. والثالث: الموت، كقوله: إن امرؤ هلك، ويضيف الراغب وجهًا رابعًا وهو: بطلان الشىء من العالم وعدمه رأسًا وذلك المسمى فناءً المشارُ إليه بقوله: «كل شىء هالك إلا وجهه»[(٢)]، فالهلاك هنا افتقاد الشىء وعدمُ وجوده، حين نظر فوجد نفسه وحيدًا كما قال ـ تعالى ـ: ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا

(١) انظر: معجم مقاييس اللغة لابن فارس (٦/ ٦٢).

(٢) انظر: مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهانى ص٥٤٢.

خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ (٩٤) ﴾ [الأنعام: ٦/ ٩٤]. أما قوله: «عَنِّى» فى قوله: ﴿هلك عنى سلطانيه﴾ فهى تضيف إلى ما ذكرناه تأكيدًا وبيانًا، إنها تفيد أن هذا السلطان حين ذهبت أيامه، ومضت أوقاته بعُد عن صاحبه ولم يعد إلى الانتفاع به من سبيل، وفى قوله: «سلطانيه» ما يدلك على ما كان فيه فى الدنيا من القوة ونفوذ الكلمة، فإن السين واللام والطاء تدل على التمكن من القهر فإذا أضيفت إلى الألف والنون دل على تمام التمكن من بسط الكلمة وإجبار الآخرين على الانقياد، فإذا أضيف هذا إلى صاحب السلطان فقال: سلطانى كان معنى هذا انفراده بامتلاك زمام الأمور، وأنه الرأس المدبر والحاكم الآمر، وإذا كان هذا هو معنى السلطان فى الآية فهناك معنى آخر هو أن السلطان هو الحجة فيكون المعنى: هلك عنى سلطانيه فليس لى حجة أحتج بها عند ربى، وكما قال ابن عباس: ضلت عنى كل بينة فلم تغن عنى شيئًا، وأوضح هذا قتادة فقال: «أما والله ما كل من دخل النار كان أمير قرية يُجبيها، ولكن الله خلقهم وسلطهم على أقرانهم وأمرهم بطاعة الله ونهاهم عن معصية الله»[1]، وقد ورد السلطان بمعنى الحجة فى كتاب الله كما نرى فى قوله: ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ [غافر: ٤٠/ ٣٥].

وفى قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ ﴾ [غافر: ٤٠/ ٥٦]. وفى قوله: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٢٣) ﴾ [غافر: ٤٠/ ٢٣].

وفى قوله: ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا (١٤٤) ﴾ [النساء: ٤/ ١٤٤]. فالسلطان فى هذه الآيات هو الحجة والبرهان القاطع لما له من قوة

(١) انظر: جامع البيان لابن جرير الطبرى (٢٩/ ٦٢، ٦٣).

تأثير على القلوب يجعلها تستلم لقوته، وهل أبقى الإله العادل لأحد حجة يحتج بها عنده، ألم يرسل رسله وينزل كتبه، ومن لم تبلغه الدعوة لا يؤاخذ ولا يعذب: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً ⦗١٥⦘﴾ [الإسراء: ١٧/ ١٥]. ولذلك نقرأ فى آيات القرآن بعض ما يدور من حوار بين الله وهؤلاء الضالين فترى أنهم يعترفون بأنه لا حجة لهم ولا دليل، يقول ـ تعالى ـ: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ⦗١٣٠⦘﴾ [الأنعام: ٦/ ١٣٠].

وبعد أن ذكر الله فى سورة «المؤمنون» ما ذكر من عذاب مَنْ خَفَّتْ موازينه وجه الخطاب إليهم فقال: ﴿أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ⦗١٠٥⦘ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ⦗١٠٦⦘ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ⦗١٠٧⦘ قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلا تُكَلِّمُونِ ⦗١٠٨⦘﴾ [المؤمنون: ٢٣/ ١٠٥ ـ ١٠٨] إلى غير ذلك من الآيات التى تبين حسرة الكافر وهو يقول: ﴿هلك عنى سلطانيه﴾، أى بطلت حجتى فليس لى ما أدافع به عن نفسى، وقيل إن السلطان هنا تسلطه على جوارحه، وقد أعطى الله العبد فى الدنيا سلطانًا على جوارحه فهى منقادة له لا تعصى له أمرًا، وفى يوم اقيامة أنطقها الله الذى أنطق كل شيء فشهدت على صاحبها بما فعل فى دنياه فقال: تبًا لكن، عنكن كنت أدافع، ويقول: هلك عنى سلطانيه، أى لم يبق لى سلطان ولا قدرة ولا قوة على جوارحى فقد أخذت تشهد عليَّ بما صنعتُ: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ⦗٦٥⦘﴾ [يس: ٣٦/ ٦٥].

* * *

٨ - جزاء من أوتى كتابه بشماله

يقول ـ تعالى ـ: ﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (٣٠) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (٣١) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ (٣٢) ﴾ [الحاقة: ٣٠ ـ ٣٢].

هذا هو من أوتى كتابه بشماله ترى كل كلمة قالها ترسُم صورة لإنسان ملتاع ينادى ولا مجيب، ويتحسر ويتألم دون فائدة، ويصرخ قائلاً: ﴿ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ (٢٥) وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ (٢٦) يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ (٢٧) مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ (٢٨) هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ (٢٩) ﴾. وأنت حين تسمع هذا وتتأمله تتساءل: وماذا يفعل به بعد ذلك؟ هل يكفيه هذا العذابُ النفسى، وما نزل من كرب وحزن وألم، أو أن هناك جزاءً يستحقه وعقابًا يناله؟ ما هو هذا الجزاء؟ وما نوع العقاب وكيف يكون؟ هنا تأتى الإجابة: إن الله لن يتركه هكذا إنما يأمره زبانية جهنم فيقول لهم: ﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (٣٠) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (٣١) ﴾ الآيات، وحين يأتى الكلام إجابة عن سؤال يسأله السائل يقع هذا الكلام فى النفس كل موقع.

وهؤلاء الذين يناديهم الله من ملائكته ليأخذوه هم ملائكة العذاب، وما أدراك ما ملائكة العذاب، إنهم خلق من خلق الله أعطاهم الله من القدرة والقوة ما لا يخطر على بال، كما جعلهم على صُوَرٍ وأشكال تُنزِل الرعب والهلع بقلوب أهل النار ـ فنعوذ بالله من النار وما قرب إليها من قول عمل ـ.

قال ابن جريج: نعت النبىّ ﷺ خزنة جهنم (أى وصفهم) فقال: «فكأن أعينهم البرقُ، وكأن أفواههم الصياصى (أى كالحصون فى ضخامتها) يجرون أشعارهم، لأحدهم من القوة مثلُ قوة الثقلين، يسوق أحدهم الأمة (أى الجماعة العظيمة من الناس) وعلى رقبته جبل، فيرميهم فى النار ويرمى فوقهم الجبل».

وذكر ابن وهب قال: حدثنا عبد الرحمن بن زيد قال: قال رسول الله ﷺ فى خزنة جهنم: «ما بين مِنكَبَىّ أحدهم كما بين المشرق والمغرب، وقال ـ تعالى ـ:

﴿عَلَيْهَا مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدادٌ لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۝٦﴾ [التحريم: ٦٦/٦]، أى غلاظ القلوب لا يرحمون إذا استُرحموا، شداد الأبدان، وقيل: غلاظ الأقوال شداد الأفعال، وقيل: غلاظ فى أخذهم أهل النار، شداد عليهم، وقيل: أراد بالغلاظ ضخامة أجسامهم وبالشدة القوة».

قال ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ: ما بين منكبىْ الواحد منهم مسيرة سنة وقوة الواحد منهم أن يضرب بالمقمع فيدفع بتلك الضربة سبعين ألف إنسان فى قعر جهنم»[(١)]. فمن الذى يطيق ذلك، ومما يزيد الأمر شدة فى العذاب والنكال أن أمْر الله بأخذ الكافر، لم يصدر لملك واحد، وملكٌ واحد فيه من الإرعاب والتخويف والقوة ما يكفى الآلاف ـ لكنّه صدر هكذا ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ۝٣٠ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ۝٣١ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ۝٣٢﴾، فهو أمر للملائكة: ملائكة العذاب لتفعل بواحد من أهل النار هذا ولم يقل ربنا: خذوهم فغلوهم ثم الجحيم صلوهم، إنما هو كما ترى أمر مجموعة من الملائكة لتنفيذ هذه المهمة فى إنسان أصابه الهلع من هول ما رأى فى كتابه، وزاد هذا الهلع ما رأى من ملائكة العذاب.

قال الفضيل بن عياض ـ رحمه الله ـ إذا قال الرب ـ عز وجل ـ: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ﴾، ابتدره سبعون ألف ملك أيهم يجعل الغل فى عنقه، وعن المنهال بن عمرو قال: إذا قال الله ـ تعالى ـ: «خذوه»، ابتدره سبعون ألف ملك، إن الملك منهم ليقول هكذا فيُلقِى سبعين ألفًا فى النار»[(٢)]. ولو عدت معى تأمل قوله ـ تعالى ـ: «خذوه»، لوجدت أنها تصور لك إنسانًا شريدًا طريدًا مهانًا اجتمع عليه الجنود وأحاطوا به من كل جانب لإلقاء القبض عليه واقتياده إلى مصيره المحتوم، مصير المذنبين المجرمين، ولعلنا ما زلنا نذكر ما قلناه فى بداية السورة عند قوله ـ تعالى ـ: ﴿فعصوا رسول ربهم فأخذهم أخذة رابية﴾، والأخذُ

(١) انظر: تفسير القرطبى الجامع لأحكام القرآن (١٨/ ١٩٦، ١٩/ ٧٨ ـ ٨٠).
(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٤١٦).

فى الآية وأمثالها: الاستيلاء على الشىء بالقوة والقهر الذى لا يدع للمأخوذ فرصة للهرب، ولذلك سمى الأسير بالأخيذ أو المأخوذ، قال ـ تعالى ـ فيما حل بفرعون: ﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾﴾ [المزمل: ٧٣/١٦]، وقال فيما نزل بالمكذبين عبْر مراحل التاريخ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هود: ١١/١٠٢]، وقال: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [هود: ١١/٦٧]، وهؤلاء قوم صالح، وقال فى قوم شعيب: ﴿وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٩٤﴾﴾ [هود: ١١/٩٤]، وفى الحديث: «إن الله يملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته»، هذا إذن هو ما فى قوله: ﴿خُذُوهُ﴾ من دلالة على ما يلقى هذا الكافر من نكال، فما معنى: ﴿فغلوه ثم الجحيم صلوه﴾. الغُلُّ هو القيد يوضع فى العنق أو اليد، أو كما يقول ابن منظور: «جامعة توضع فى العنق أو اليد، وفى قوله ـ تعالى ـ: ﴿إنا جعلنا فى أعناقهم أغلالاً﴾، قال: هى الجوامع تَجمعُ أيديهم إلى أعناقهم»(١).

وقد أمر الله زبانية العذاب بأخذ هذا الذى أوتى كتابه بشماله بقوة وتقييده بجامعة وقيد فى يديه مربوطين إلى عنقه بهذا القيد، ولعلك تخيلت هذا المنظر لإنسان ذليل منقطع الرجاء أحاطت به ملائكة العذاب بمجرد صدور الأمر لهم فأخذوه فى لحظات وقيدوه وجمعوا يديه إلى عنقه بالقيود والأغلال. قال ـ تعالى ـ: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٥﴾﴾ [الرعد: ١٣/٥]، وقال: ﴿إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [غافر: ٤٠/ ٧١، ٧٢]، إلى غير ذلك من الآيات التى تبين كيف يكون حال هذا البائس التعس المقيد بالأغلال، والتعبير القرآنى يجمع هذه المعانى وهذه الصورة ذات الجوانب المتعددة فى كلمة واحدة هى قوله: «فغلوه» فأفادت الفاء سرعة تنفيذ الأمر،

---

(١) لسان العرب لابن منظور (٥/ ٣٢٨٨).

وأنه بمجرد أن قال الله لهم خذوه فغلوه، كان هذا قد تم على وجه السرعة، وجاء قوله «غلوه» يصور لك ملائكة العذاب تضع القيود فى يدى هذا الكافر وتجمع يديه إلى عنقه لتسوقه إلى المصير البائس، حيث يلقى جزاء كفره وعناده.

وتواصل الآيات بيان ما أمر الله به ملائكته حيث يقول: «ثم الجحيم صلوه» ولعلنا نلاحظ فى الآيات أنها ذكرت العرض للحساب على الله وذكرت ما كان بعد هذا العرض من أخذ الكتاب بالشمال وما يقوله من أخذ كتابه بشماله وما يؤول إليه من عذاب مهين ولم تذكر الآيات ما يكون فى المحشر وما يحدث للخلائق فى هذا الوقت العصيب، ثم ما يكون من مجيء الرب والملائكة ليوم الفصل، وما يكون من ميزان وحساب ومرور على الصراط ثم يصير العباد إما إلى جنة وإما نار، لم تذكر الآيات هذا التفصيل لأن الغرض من سياق الآيات اقتضى أن يلتقط لقطات سريعة تعمل علمها فى النفس البشرية ويلقى فيها ألوانًا من الترغيب والترهيب تقودها إلى الخوف من الله والإيمان الصادق به، والعمل المتواصل لمرضاته والفوز بجناته والنجاة من عقابه، و«ثُمَّ» فى قوله: ﴿ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ﴾، تدل على أن هناك فاصلاً زمنيًا بين تقييده بالسلاسل والقيود، وإدخاله إلى الجحيم، ولعله حين قَدْ سَرَى إلى قلبه أن هذا عذاب وأمْرٌ ربما كان سهلاً فالتقط فيه أنفاسه وإذا به بعد فترة قد أدخل النار ليصلى فيها العذاب الأكبر فكان هذا أشد إيلامًا لنفسه، أو أن حرف العطف ليس للتراخى الزمنى إنما للتراخى فى المرتبة، أى الانتقال من حال إلى حال أعظم ومن عذاب إلى عذاب أشد، كما نرى فى قوله بعد هذه الآية: ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعًا فاسلكوه، لكن ما هو الجحيم؟ وما معنى «التصلية» ولماذا قدم كلمة «الجحيم» على قوله «صلوه»؟

* * *

وردت كلمة «الجحيم» فى القرآن ستًا وعشرين مرة، والجيم والحاء والميم فى لغتنا تعنى شدة تأجج النار، والجاحم المكان الشديد الحر، ويقال: جحمتا الأسد عيناه وذلك لأن عينيه أبدًا متوقدتان، ويقول ابن منظور: الجحيم: اسم من

أسماء النار، وكل نار عظيمة فى مهواة فهى جحيم، فهى إذن ليست مجرد نار إنما هى نار عظيمة فى مكان سحيق، تضطرم بكثرة جمرها ولهبها وتوقدها[١].

أما التصلية والتى وردت مادتها فى القرآن خمسًا وعشرين مرة.. فهى إدخال الكافر النار حتى يُشوى بها، من قولك: صلَيتُ اللحم وغيره من باب رَمَى: شويتُه، وفى الحديث أنه أتى بشاة مصْلية (أى مشوية)، ويقال أيضًا: صليتُ الرجل نارًا إذا أدخلته النار وجعلته يصلاها فإن ألقيته فيها إلقاء كأنك تريد إحراقه قلت: أصليته ـ بالألف ـ[٢].

ويضيف ابن منظور نقلاً عن الكسائى معنى آخر فيقول: «المصلية: المشوية فإما إذا أحرقته وأبقيته فى النار قلت صلَّيتهُ بالتشديد، وأصليته، وصلَى اللحم فى النار وأصلاه وصلاه: ألقاه للإحراق»[٣].

ولك بعد أن عرفت معنى الكلمتين أن تدرك ما فى قوله: «ثم الجحيم صلوه» من ألوان العذاب وشدته وقوته مما لا يعبر عنه إلا: «ثم الجحيم صلوه» فإذا علمنا أن تقديم كلمة «الجحيم» على: «صلوه» أفادت الحصر، أى لا تَصَلُّوه إلا الجحيم، أدركنا مدى ما فى هذا العذاب الذى يلقاه من شدة شديدة إذ هو قد سقط فى مهواة بعيد غورها سوداء مظلمة متوقدة بنار رهيبة عظيمة، تتلظى بكثرة جمرها ولهبها وتوقُدها، يُلْقى فيها فيُشوَى وهو يتقلب على جمرها حتى يحرق، وليته حين يحرقَ ينتهى عذابه، إن جلده كلما أحرق نبت من جديد كما قال ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا (٥٦)﴾ [النساء: ٤/ ٥٦].

---

(١) انظر: لسان العرب لابن منظور (١/ ٥٥٣)، ومعجم مقاييس اللغة لابن فارس (١/ ٤٢٩).

(٢) مختار الصحاح للرازى ص٣٦٨ ، ٣٦٩.

(٣) لسان العرب لابن منظور (٤/ ٢٤٩١).

وهناك لون آخر من العذاب ربما كان أشدَّ من الجحيم التى يصلاها، بل قل إنه يضيف إلى ما هو فيه من بلاء الجحيم بلاء من نوع آخر، وآلامًا فوق آلام وعذابًا فوق عذاب، وهذا ما نراه فى قوله، ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعًا فاسلكوه. ولك أن تتصور هذا اللون من العذاب وأنت تتابع كلمات الآية لترى فيها كلمة «ثم» وهى حرف عطف يفيد الترتيب والتراخى، فهذه مسألة تأتى بعد أن أدخل الجحيم، والتراخى قد يكون تراخيًا زمنيًا، فقد تمضى فترة من الوقت ثم يكون هذا العذاب، لتكون المفاجأة أوقع، إذ قد يخطر بباله أن أمره قد انتهى بإدخاله النار يشوى على جمرها ولهبها ويحرق بها، فإذا به بعد فترة من الزمن - إن كان هناك زمن - قد فوجئ بملائكة العذاب تسلسله فى هذه السلسلة الرهيبة ليزداد غمًا على غم وهمًا على هم، وقد يكون هذا التراخى فى المرتبة بمعنى أن هذا العذاب أقسى وأنكى وأشد مما يرى من العذاب فى الجحيم - وبعد «ثم» يأتى قوله: «فى سلسلة»، فتراها نكرة، والتنكير يفيد التهويل، وقد جاءت الآثار تبين بعض ما فى هذه السلسلة من صفات رهيبة مخيفة:

قال كعب الأحبار: «كل حلقة منها قدر حديد الدنيا، وقال: لو جُمع حديدُ الدنيا ما وزنَ حلقة منها».

وقوله: «ذرعها»، فسره المفسرون بأنه طولها، ولكن التعبير بـ «ذَرْعُها» يزيد على مجرد الطول بأن هذا الطول يقاس بالذراع، والذراع هنا هو ذراع الملَك، فكم طول ذراع الملَك، وكم يكون طول هذه السلسلة إذا كانت تقاس بذراع الملك؟، وقد رأينا بأن ذراع الملَك هذه تحمل الأمة العظيمة الكثيرة العدد من الناس المستحقين للنار فتلقى بهم فى النار دفعة واحدة ثم تحملُ جبلاً فتقذفُه فوقهم، والسبعون هذه التى قال فيها «ذرعها سبعون ذراعًا» هل هى سبعون حقيقة أو أن ذكر هذا العدد من باب المبالغة كما فى قوله: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٩/ ٨٠]، وفى المبالغة من التخويف والزجر مال لا يخفى، ثم يأتى قوله: «فاسلكوه»، ليضيف

صورة عجيبة لما يكون عليه هؤلاء من العذاب، وهذه الصورة تحتاج إلى وقفة متأنية لنعرف أبعادها وما تدل عليه:

إنها ترسُم صورة لإنسان قد سُلِك فى هذه السلسلة الفظيعة، كما تسلك الدجاجة فى السفود وهو عود الحديد لتشوى على النار، يقول ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ: تدخل فى دبره وتخرج من منخره، وقيل تدخل من فيه وتخرج من دبره، ولو تأملنا فى قوله: «فاسلكوه» لوجدنا أنه عبَّر بالسَّلْك إشارة إلى ضيقها على ما تحيط به من بدنه، فإن معناها: أدخلوه بحيث يكون كأنه السلك أى الحبل الذى يدخل فى ثقب الخرزات بعسر لضيق ذلك الثقب، إما بإحاطتها لعنقه أو بجميع بدنه بأن تلف عليه، فإذا أضفنا هذه الصورة إلى ما جاء فى قوله: «خذوه فغلوه»، لنظرت إنسانًا قد وضع الغل وهو القيد أو الجامعة فى يديه مشدوتين إلى عنقه ثم أدخلت السلسلة فى دبره إلى فمه، أو أدخلت من فيه إلى دبره ثم خرجت فأحاطت بعنقه أو بجميع بدنه، وهذه السلسلة خاصة به وهذا كالجحيم الخاص به كما فهمنا هذا من تقديم قوله «فى سلسلة» موصوفة بأن «ذرعها سبعون ذراعًا» على قوله: «فاسلكوه»، وعن ابن عباس فى قوله «فاسلكوه».. قال: «تدخل فى أسته (أى فى دبره) ثم تخرج من فيه ثم يُنظمون فيها كما ينظم الجراد فى العود حتى يشوى».

وقال العوفى عن ابن عباس: «تسلك فى دبره حتى تخرج من منخريه حتى لا يقوم على رجليه»، فيا له من منظر مخيف لإنسان قيدته الأغلال وسُلك فى سلسلة من هذا النوع فأصبح مقيداً لا يتمكن من القيام على رجليه، يشوى فى النار حتى يحترق، فنعوذ بالله من ذلك ونسأل الله عفوه وعافيته وأن يجيرنا من النار بمنه وفضله وكرمه.

* * *

٩ - سبب العذاب الذى حَلّ بمن أوتى كتابه بشماله

يقول ـ تعالى ـ: ﴿ إِنَّهُ كَانَ لا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلا طَعَامٌ إِلاَّ مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لا يَأْكُلُهُ إِلاَّ الْخَاطِئُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [الحاقة: ٣٣ ـ ٣٧].

لعلنا نتساءل عن السبب الذى أدى بهم إلى ذلك المصير المشئوم والعذاب المهين، حتى فوجئ الواحد منهم بأن كتاب أعماله قد سقط فى شماله فتناوله ورأى فيه سوء عمله فصاح يندب حظه العاثر ويتحسر على ما صار إليه أمره ويندم ولاتَ ساعة مندم فصدرت الأوامر الإلهية لملائكة العذاب بأخذه إلى مصيره وإيقاع العذاب على النحو الذى ذكرته الآيات، ما السبب الذى أوصله إلى هذا الضياع، هنا تأتى الإجابة: ﴿ إِنَّهُ كَانَ لا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلا طَعَامٌ إِلاَّ مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لا يَأْكُلُهُ إِلاَّ الْخَاطِئُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾.

إنهما أمران إذا اجتمعا فى إنسان وصل إلى حالة من السوء تجرد فيها ومعها من كل خير ولم يعد يصلح إلا للنار: الكفر بالله، والبخل على خلق الله، لقد عاش فى دنياه محجوبًا عن نور الإيمان، وما فيه من طمأنينة القلب وانشراح الصدر، والثقة فى الله، وهل هناك أعظم ممن يحيا لحظات عمره مع الله، يعبده ولا يعبد سواه، يرجو رحمته ويخشى عذابه، ويطمئن قلبُه بذكره، ويأنس بنصره ومدده، ويرنو إلى رحمته وجنته؟ إن الكافر قد حرم من نعمة الإيمان، كما حرم من نعمة المشاركة فى إدخال السعادة على المحرومين، فلم يطعم مسكينًا بل لم يحض غيره على ذلك ويدعوه إلى الوقوف بجانب المحتاجين والجائعين والمرضى واليتامى والمساكين، إنه عاش فى دنياه لنفسه، إنه لا يعرف إلا ذاته، ولا يسعى إلا من أجل الحطام الفانى، ومن أجله يبيع الصديق، ويخون الأمانة، ويرتكب الكبائر، إنه لا صديق له ولا حبيب ولهذا لم يجد له يوم القيامة وفى

الموقف العصيب حميمًا، يحزن له أو يدافع عنه، ولم يجد له طعامًا إلا هذا الطعام من صديد أهل النار، ﴿فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلا طَعَامٌ إِلاَّ مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لا يَأْكُلُهُ إِلاَّ الْخَاطِئُونَ ﴿٣٧﴾﴾، ولنعد إلى الآيات نلتقط منها بعض المعانى كما عبرت عنها الكلمات: هذه الآيات كما ترى جاءت مفصولة عن سابقتها فصلاً بيانيًا فيما يسميه البلاغيون شبه كمال الاتصال، فهى كما ذكرنا إجابة عن سؤال مفهوم من الآيات السابقة: ما الذى أوصل هذا البائس إلى هذا المصير التعس فجاءت الإجابة: إنه كان لا يؤمن بالله العظيم... الآيات.

والإيمان هو: التصديق القلبى الجازم الذى لا يعتريه شك، ومن آمن بالله ربًا واحدًا إنما يؤمن بذلك بإخبار الرسول الذى أرسله الله ليدل الناس على الله، فيتبع هذا التصديق القلبى بالله ربًا واحدًا وإلها معبودًا الإيمان بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، ولا يبقى هذا مجرد تصديق فى القلب لا يحركه إنما يقود هذا الإيمان الجوارح فينطق اللسان بالشهادتين وتتحرك الجوارح عابدة لله بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان والحج إن استطاع المؤمن إلى ذلك سبيلاً، ويبقى الإيمان عاملاً محركًا يدفع صاحبه إلى مرضاة الإله الذى عرفه فأحبه وعبده حتى يصل إلى مرحلة تجويد عبادته وعمله، وتلكم هى مرتبة الإحسان التى تعنى أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك، ولهذا جاء التعبير عن الإيمان هنا بالفعل المضارع: إنه كان لا يؤمن بالله العظيم، فقوله: «لا يؤمن» وبهذا التعبير معناه أن الإيمان لا بد أن يبقى حالة متجددة لا حالة عابرة حدثت وانتهت، وهذا ما يغيب عن كثير من الناس، إذ يحتاج الإيمان إلى مدد متواصل من العمل الدءوب حتى تبقى جذوته شعلة متقدة فى الجوارح والمشاعر والأحاسيس، تنير للمؤمنين بالله الطريق، وترفعهم إلى كل عمل صالح، وتجعلهم يشعرون بدفء معرفتهم وإيمانهم بخالقهم ورازقهم، ولهذا يرى أهل السنة والجماعة أن الإيمان يزيد وينقص، يزيد بالطاعات وينقص بالمعاصى، ويتوارى بالتالى بالكفر والجحود وإنكار ما هو معلوم من الدين

بالضروزة، وقد اختار من بين أسماء الله اسمه الأعظم المستجمع لكل صفات الكمال والجلال فقال: «إنه كان لا يؤمن بالله العظيم»، وفى هذا الاختيار للفظ الجلالة إظهار لحماقة هذا الكافر وجهله، إذ لو تأمل لوجد الله المعبود فى كل ذرة فى هذا الوجود:

وفى كل شىء له آية ∴ تدل على أنه الواحد

ولا يتسع المقام لأذكر لك بعض ما جاء فى كتاب الله من حجج ظاهرة يلفت القرآن إليها أنظار المشركين، ويدعوهم إلى التأمل فى مظاهر ربوبية الله التى يعترفون بها إلى الاعتراف والإيمان بألوهيته.

ولعلك تقرأ من ذلك ما جاء فى سورة النمل من قوله ـ تعالى ـ: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [النمل: ٥٩]، وتقرأ الآيات التالية لها وهى خمس آيات لتقرأ فى نهاية كل آية: ﴿أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾، ﴿أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.. وهكذا، فكان على من لم يؤمن بالله أن يتدبر بمن كفر، ومن أنكر ليعرف مدى ما يرتكبه فى حق نفسه من تقصير وفى حق ربه من جحود، وفى الآية اختار وصفًا لله يتناسب مع السياق وهو وصف العظمة فقال: إنه كان لا يؤمن بالله العظيم، وعظمة الله لا تدانيها عظمة، إنها العظمة الكاملة التى هى من صفات الجلال والكمال لله ـ سبحانه ـ وكان على من جحد وأنكر وتنكر لله فأعماه سلطانه عن الحقيقة فتعالى وتكبر وعاث فى الأرض فسادًا، أن يدرك أنه إلى زوال، وأنَّ ما فى يده عارية وأنه ضيف فى هذه الدنيا، والضيف مرتحل والعارية مستردة، وأنه مقهور بقهر الله له، جاء إلى الدنيا وخرج منها وعاش فيها ما عاش وجرى عليه ما قدر الله ما جرى دون أن يؤخذ له رأى، أما كان الأولى به أن يخفف من غلوائه، وأن يتطامن متواضعًا لربه، وأن يأوى إلى هذا الركن الركين والإله العظيم؟؟، إن كل ضعيف يبحث له عن قَوِىٍّ يحتمى به، وكل من لا جاه له ولا سند له يهرع إلى أصحاب الجاه فإن ظفر بهم لاذ بهم واحتمى بحماهم، وهذا الإله العظيم، من له

القوة والسلطان، يدعو عباده للدخول فى حماه، حين يدعوهم للإيمان به، واللياذ به، وحين يلفت أنظارهم إلى أنه هو الذى خلقهم ورزقهم وهو الذى يميتهم ثم يحييهم، فهل يعقل ذلك الجاحدون، وهل يتنبه لذلك الغافلون؟؟ إن الله حين ذكر فى الآية أنه العظيم بيّن لنا أنه المستحق وحده للعظمة فمن لم يعظمه فقد استحق ما ينزل به من العذاب.

وإذا كان عدم الإيمان بالله العظيم هو السبب الأول فى هذا الذى حلّ بالكافرين فإن السبب الثانى هو بخلهم وقسوة قلوبهم وبلادة طبعهم وكزازة نفوسهم وتخليهم عن المحرومين والجائعين والبائسين فى أمتهم، وهذا ما نراه فى قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ والآية بهذه الكلمات المختارة لخصت هذا السبب فى أقوى عبارة، وبينت مدى جرم من لم يحض على طعام المسكين، فقد جاء هذا السبب قرين الكفر بالله، وفى هذا بيان لعظم أمره، ثم ذكرت أن عدم الحض على طعام المسكين جريمة تستحق العذاب فكيف بمن لم يطعم المسكين، بل كيف يكون عذابُ من يحرم الجياع من الطعام، ومن يسرق أقواتهم، ويتركهم نهبًا للضياع والهلاك؟ وفى الآية ترى أنه اختار الفعل المضارع فى قوله: «ولا يحض» ليبين أن الأمر ليس مجرد كلمة يقولها من يقولها وينصرف يهز عطفيه لا تثيره دموع المحرومين ولا تحركه أنات البؤساء، إنما الأمر يحتاج إلى جهدٍ متواصل فى الدعوة لجبر خاطر المحرومين، وتوفير ما يحتاجون من طعام وكساء ودواء ومسكن وحياة تليق بالإنسان، وقد يكون ذلك بالدعوة الفردية للآخرين وقد يكون بتكوين جمعيات خيرية يشارك هو فيها بماله ووقته وجهده، يجمع من خلالها الصفوف لصد غائلة الجوع عن الجياع واستبقاء الحياة الكريمة لهؤلاء البؤساء، ويأتى التعبير بالحض يبين أن الأمر أيضًا ليس مجرد الحث على ذلك كما يحلو للبعض أن يفسر الحض بالحث، إنما الحض تحريض قوى يبذل فيه صاحبه كل ما له من قوى لتحقيق ما يدعو إليه وما يريده، وقد قال ـ تعالى ـ فيمن يكذب بيوم الدين:

﴿ فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ (٢) وَلا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ (٣) ﴾ [الماعون: ١٠٧/ ٢، ٣]، وقال: ﴿ كَلاَّ بَل لاَّ تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ (١٧) وَلا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ (١٨) ﴾ [الفجر: ٨٩/ ١٧، ١٨]، وفى المواضع الثلاثة التى ذكر فيها الحض على طعام المسكين نلمح أن الحض توجه إلى الطعام لا إلى الإطعام فهل هما بمعنى واحد أو أن هناك محذوفًا دل عليه السياق أى ولا يحض على بذل طعام المسكين؟ يبدو أن القرآن حين اختار الطعام دون الإطعام فى هذه المواضع إنما كان هذا لسر وسبب، نحاول أن نبحث عنه سائلين الله عونه وفتوحه فقد ورد الإطعام فى القرآن فى أكثر من موضع فى مثل هذا المقام، قال ـ تعالى ـ: ﴿ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (٤٣) وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ (٤٤) ﴾ [المدثر: ٧٤/ ٤٣، ٤٤].

وقال فى الأبرار: ﴿ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا (٧) وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا (٨) إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُورًا (٩) ﴾ [الإنسان: ٧٦/ ٧ ـ ٩]. وذكر الله ما قال إبراهيم ـ عليه السلام ـ: ﴿ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (٧٩) ... ﴾ [الشعراء: ٢٦/ ٧٨، ٧٩]. ويبقى الحض على طعام المسكين ليس مجرد إطعامه، أو بذل الطعام له، إنما يبذل قصارى جهده فى توفير الطعام للمساكين، حتى إذا ما طلبه المسكين وجده، لا أن نطعم مسكينًا لقيمات تستبقى عليه حياته، إنما يحتاج المساكين إلى تعاون القادرين بأموالهم أو بأقوالهم حتى يوفروا حياة تليق بهؤلاء المحرومين، ولذلك جاء فى آية «الفجر»: ﴿ وَلا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴾.

فأنت ترى أن الأمر ليس عملاً فرديًا إنما هذا عمل جماعى من كل أفراد الأمة يشترك فيه أغنياؤهم وفقراؤهم وعالمهم وجاهلهم، كل واحد يحض الآخر ويستثير حميته وغيرته وأمانته وخلقه ودينه للوقوف بجانب المساكين حتى تتوفر لهم وسائل الحياة وفى مقدمتها الطعام، وقضية الطعام ووفرته

وتوفيره للجياع ليست قضية فرد إنما هى قضية أمة بل قضية دول العالم فى بذلها كل الجهود لتوفير الطعام للناس، وما الحروب الطاحنة وما يتبعها من دمار وقتل وسفك للدماء إلا من أجل الحصول على الطعام بالاستيلاء على مصادره ووسائله، وما البحوث التى يُبذلُ فيها ما يبذل من جهد ومال إلا لتحسين أنواع الطعام وتوفير المال اللازم لشرائه أو تنمية موارده ومصادره، وتبقى صورة الجياع أو بتعبير القرآن: «المسكين» صورة تلهب مشاعر الإنسانية والإنسان من حيث هو إنسان فتدفعه إلى أن يجنِّد كل قواه وكل قوى مَن حوله لإنقاذ هؤلاء المساكين، فإن لم يفعل كان بليد الحس، شحيح النفس مُظلم القلب، ومثل هذا لا يعرف إلا نفسه ولا يحيا إلا لذاته، ولا يعنيه أمر غيره، وهذا قد غاض فى مشاعره معين الإيمان أو فقد الإيمان كله، لأن الإيمان رباط يربط صاحبه بالله. والله يحث المؤمن به على بر عباده وإطعامهم والوقوف بجانبهم، يبقى فى الآية أن نقف عند الإطلاق فى قوله: «ولا يحض»، فهذا الإطلاق يفيد العموم، ليشمل نفسه وغيره أى ولا يحض نفسه بحملها على فعل الخير، ولا يحض غيره على ذلك، وحب المال لا يخلو منه أحد كما قال ـ تعالى ـ: ﴿وتحبون المال حبًا جَمًّا﴾، وكما قال: ﴿وإنه لحب الخير (أى المال) لشديد﴾، وحض الآخرين على الخير ليس بالأمر السهل أو الهين، لأنه يحتاج من الداعى للخير أن يكون لغيره قدوة، وأن يتحمل منهم بعض ما لايعجبه ولا يحبه، كما يحتاج إلى المثابرة والصبر، وربما يكسل الإنسان عن ذلك، وربما وجد فى ذلك تعبًا ومشقة فينصرف عن الدعوة للخير، كما يبقى أن نقف عند الإفراد فى قوله: «المسكين»، دون المساكين لنتساءل: لماذا أتى بهذه الكلمة مفردة لا جمعًا؟ هل الحض على طعام مسكين يؤدى فى النهاية إلى إطعام المساكين؟ وأن القرآن أراد أن يلتقط صورة المسكين فردًا واحدًا ليجسد فيه كل معانى البؤس والفقر والحاجة إلى طعام ليحيا كما يحيا كل الناس، ليأخذ من هذه الصورة دليلاً على ما وصل إليه الكفار من بلادة الطبع وقسوة القلب حيث لم تحرك تلك الصورة

فيهم ساكنًا؟؟ يبدو والله أعلم بأسرار كتابه أن الأمر كذلك، ولهذا استحق الكافر العذاب الأكبر الذى سبق ذكره فى الآيات والذى جاء تعقيبًا على سوء معتقده وانحراف طبعه، قال ـ تعالى ـ: ﴿ فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلا طَعَامٌ إِلاَّ مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لا يَأْكُلُهُ إِلاَّ الْخَاطِئُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ إنه بانكفائه على ذاته، وشحه وبخله بماله ولسانه وجهده، وعدم مشاركته فى إسعاد المحرومين، ولو فى أدنى المستويات باستبقاء حياتهم بتوفير الغذاء لهم، أو قل بتوفير الطعام لهم، استحق لونين من العذاب: نفسى وبدنى، النفسى تراه فى قوله: ﴿ فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ ﴾، والبدنى فى الآيتين بعدها.. والآية الأولى تشير إلى عظم يوم القيامة وما يكون فيه من أحداث جسام تحتاج إلى المعين على اجتيازها، وذلك حين ذكرت اليوم، وجاء بقوله: «ههنا» واليوم: هو اليوم المشهود الذى ذكر الله فيه فى السورة ما ذكر من أحوال وأهوال، و«ههنا» أى فى الموقف الذى رأى فيه الكافر ما رأى من العذاب الأليم، ولكم يحتاج المرء فى هذا اليوم وفى هذا الموقف إلى الصديق الحميم، وأنى للكافر أن يحصل عليه؟ ولكن لماذا جاء هذا الوصف هكذا «حميم».

ما معنى هذا الوصف وما قيمته فى إبراز المعنى وتجليته؟ الحيمم فى أصله اللغوى: الماء الشديد الحرارة، قال ـ تعالى ـ: ﴿وسقوا ماء حميما﴾، وقال: ﴿إلا حميما وغساقا﴾، وقال ـ تعالى ـ: ﴿والذين كفروا لهم شراب من حميم﴾ وسُمِّىَ الحَمَّام حَمَّاما إما لأنه يُعَرِّقُ وإما لما فيه من الماء الحار [وكانت الحمامات قديمًا يأتيها الناس فيدخلونها بأجر لما فيها من الماء الحار وغيره] ومن هنا قيل للصديق المخلص، والقريب المشفق بأنه صديق حميم لأن كلاً منهما يحتد حماية لذويه، وفى مواقف الشدة يحتاج المرء إلى الصديق الحميم والقريب الحميم، الذى يرى أن شدتك شدته، وما ينزل بك قد نزل به فهو لا يهدأ ولا يقر له قرار إلا إذا أزال شدتك وفرَّج عنك ما أنت فيه. والأخوة فى اللهِ سبب من أسباب الخير فى الدنيا والآخرة، والأخوة فى الشيطان باب

من أبواب التعاسة فى الدنيا والآخرة، قال ـ تعالى ـ: ﴿ الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ (٦٧) ﴾ [الزخرف: ٤٣/ ٦٧]. وقال: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً (٢٧) يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلانًا خَلِيلاً (٢٨) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولاً (٢٩) ﴾ [الفرقان: ٢٥/ ٢٧ ـ ٢٩]، وفى هذا اليوم يقول الكافرون: ﴿ وَمَا أَضَلَّنَا إِلاَّ الْمُجْرِمُونَ (٩٩) فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ (١٠٠) وَلا صَدِيقٍ حَمِيمٍ (١٠١) فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٢) ﴾ [الشعراء: ٢٦/ ٩٩ ـ ١٠٢]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلا شَفِيعٍ يُطَاعُ (١٨) ﴾ [غافر: ٤٠/ ١٨]، إنه مقطوع الصلة بالآخرين، وكل ما كان بينه وبين إخوانه فى الدنيا من مودة وصداقة لا يغنى عنه فى هذا اليوم وفى هذا الموقف شيئًا، فيا له من عذاب نفسى فى هذا الوقت العصيب، وهذا لون آخر من العذاب جزاء ما حرموا المساكين من الطعام، وعاشوا تُمَدُّ لهم الموائد، ويأكلون أطيب الطعام، وبعض الأثرياء يلقون فى القمامة أكوامًا من الطعام تكفى الكثير من المحرومين، والله ـ عز وجل ـ لم يحرِّم الطيبات من الرزق إنما حرم الإسراف فى الطعام والشراب، وشنَّع على قساة القلوب قسوتهم إذ لم يذكروا أهل الفاقة والحرمان ولو بالقليل من الطعام الذى به يستبقون حياتهم، ولهذا عذب الله هؤلاء البخلاء القساة بالجوع، ليطلبوا طعامًا وشرابًا، فإذا بهذا الطعام والشراب عذاب ما بعده عذاب، وهذا ما ذكره الله بقوله: ﴿ وَلا طَعَامٌ إِلاَّ مِنْ غِسْلِينٍ (٣٦) لا يَأْكُلُهُ إِلاَّ الْخَاطِئُونَ (٣٧) ﴾ والواو العاطفة جمعت بين العذابين، العذاب بالغربة والانقطاع وتخلى الأحبة والأصدقاء عن هذا الكافر فى موقف هو أحوج ما يكون إلى من يُسرِّى عنه ويخفف من آلامه، أو يشفع له ويدفع عنه العذاب، والعذاب الرهيب الذى هو عبارة عن طعام يأكله بعد أن ضج من الجوع وتألم، وهذا الطعام من غسلين، فما هو الغسلين الذى لا طعام لهذا الكافر غيرُه؟ وما رأيكم فيما ورد من أنواع أخرى من الطعام لأهل النار

ومنها الضـريع، قال ـ تعالى ـ فى سورة الغـاشية: ﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلاَّ مِن ضَرِيعٍ ⑥ لا يُسْمِنُ وَلا يُغْنِي مِن جُوعٍ ⑦﴾ [الغاشية: ٨٨/ ٦، ٧]، ومـنـهـا: الـزقـوم كـمـا جـاء فى سـورة الدخـان: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ㊸ طَعَامُ الأَثِيمِ ㊹ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ㊺ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ ㊻﴾ [الدخان: ٤٤/ ٤٣ ـ ٤٦]، ومنها: النار، كمـا قال ـ تعالى ـ فى سورة البـقرة: ﴿أُوْلَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلاَّ النَّارَ وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ⑰④﴾ [البقرة: ٢/ ١٧٤].

فهل فى النـار أصناف من المعذبيـن ولكل صنف لون من العذاب، فـهذا له الغسلين وذاك لـه الضـريع وهكذا أو أنه يأكل مـن كل ذلك؟ هذا وذاك جـائز، ولكنك لو تأملت فيمـا تعنيه كلمة «غسلين» ربما استطعت أن تفـهم المقصود، فالغسلين هو مايجرى من الجراح إذا غُسلَتْ، فهذا إذن غسالة أهل النار، والياء والنون مزيدتان للمبـالغة وذلك صديد أهل النار، وقيل بأن «الغـسلين» شجر إذا أكلوه غسل بطونـهم أى أخرج ما فـيها من الأمـعاء وغيـرها، وهذا شبيـه بالماء الحميم الذى قال الله فيه: «وسقوا ماء حمـيمًا فقطع أمعاءهم»، أو بشجرة الزقوم التى ذكرنا مـا قال الله فـيها: «إن شـجرة الزقـوم، طعام الأثيم، كالمـهل يغلى فى البطون، كغلى الحميم». وسـواء قلنا بأن الغسلين صديد أهل النار أو هو الزقوم أو الضريع، فـهذا بيان لمـا تحدثه هذه الألوان فى أحشـاء وبطون الكافرين، وأن كل نوع منها يعـمل عمله فى هذه الأحشاء، يغـسلها بمعنى أنه يقطِّع ما فـيها ثم يخرجها، فذكـر فى الحاقة الصفة الجامعة لمـا ذكر فى مواضع أخرى، وذكر فى كل مـوضع لونًا من هذا الطعـام، والطعـام ألوان والشـراب أنواع، فـمـرة يكون صديدًا وقيحًا من صديد يسيل من أهل النار وقيحهم. وأخرى يكون ثمرة شجرة الزقوم وأحيانًا يأكلون ضريعًا وهو نبات ذو شوك وهو أخبث طعام وأشنعه.

وعن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ فى قوله ـ تعالى ـ: ﴿وطعامًا ذا غصة﴾، قال: شوك يأخذ بالحلق لا يدخل ولا يخرج.

وروى الترمذى والبيهقى عن أبى هريرة - رضى الله عنه - عن النّبى ﷺ قال: «إن الحميم ليصب على رءوسهم فينفذ الحميم حتى يخلص إلى جوفه فيسْلُتَ ما فى جوفه حتى يمرق من قدميه وهو الصَّهْرُ، ثم يعاد كما كان.

وروى أحمد والترمذى عن أبى أمامة - رضى الله عنه - عن النبى ﷺ فى قوله - تعالى -: «ويسقى من ماء صديد» يتجرعه ولا يكاد يسيغه. قال: يُقَرَّب إلى فيه فيكرهه فإذا أُدْنِى منه شَوَى وجهه، ووقعت فروة رأسه. فإذا شربه قطَّع أمعاءه حتى يخرج من دبره.

قال الله - تعالى -: ﴿ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ (١٥) ﴾ [محمد: ٤٧/ ١٥].

وقال: ﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا (٢٩) ﴾ [الكهف: ١٨/ ٢٩].

وعند الحاكم أنه ﷺ قال: «والذى نفسى بيده لو أن قطرة من الزقوم قطرت فى بحار الأرض لأفسدت»، أو قال: «لأمرَّت على أهل الأرض معايشهم فكيف بمن يكون طعامه». فإذا كنا قد عرفنا أن الغسلين وصف جامع لهذه الأصناف من العذاب - وهذا ما رأيناه فى آيات السورة تحقيقًا لهدفها فى إيقاظ الغافلين وترهيب المكذبين المعاندين - فقد ذكر الله بأن هذا الطعام لا يأكله إلا الخاطئون، لنختم به هذه الجولة فى السورة مبينًا السبب الحقيقى الذى أدى إلى كل هذه المعاناة وهذه الآلام وذلك الضياع والعذاب الذى تشيب لذكره الولدان، إنه الخطأ الذى ارتكبه هؤلاء المذنبون، وأى خطأ، وقد يخطئ المرء فى اختيار شريك حياته أو فى اختيار وظيفته، أو فى معصية يرتكبها فيتوب منها عن قريب، لكن أن يخطئ فى اختيار معبوده، أن يضل طريق ربه، أن يبقى سادرًا فى غيه لا يستجيب لتوسلات ونداءات المرسلين، إلى سنوات وسنوات دون أن يرجع عن كفره وضلاله حتى يفاجأ بالموت ينزل به فإذا به موقوف بين يدى القوى القادر ليلقى ما نقرؤه فى الآيات من ألوان النكال؟ هذا هو الخطأ القاتل، الخطأ الذى ليس له علاج، فقد فات أوان العلاج، فهل يَعقلُ ذلك الخاطئون؟.

* * *

١٠ - القـــرآن حـــق

يقــول ـ تعــالى ـ: ﴿ فَلا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ (٣٨) وَمَا لا تُبْصِرُونَ (٣٩) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (٤٠) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ (٤١) وَلا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ (٤٢) تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٤٣) ﴾ [الحاقة: ٣٨ ـ ٤٣].

مع نور الله الساطع وبرهانه القاطعُ رأينا فيما سبق من الآيات كيف حققت الآيات هدفها فى تخويف المعاندين المكذبين، فأبرزتهم وقد نزل بهم من العذاب ما نزل، وحل بهم من البلاء ما حل، وليس لذلك من سبب إلا انغلاق قلوبهم وانطماسِ نور البصيرة فيهم، وانغماسهم فى الغفلة وانصرافهم عن إجابة دعوة الخير، والله أرحم بخلقه من أنفسهم فما خلقهم ليعذبهم، إنما خلقهم ليعبدوه فيكرمهم، ويمنحهم على العمل القليل الأجر الجزيل، لذلك عاد يذكرهم بالقرآن الذى كذبوا به، وبالرسول الذى عاندوه، ويَذْكُر لهم أن هذا القرآن تذكرة عظيمة للمتقين وأنه يعلم أن منهم من يكذب به ولم يعاجله ـ سبحانه ـ بالعقوبة إمهالاً له، وإن هذا القرآن لحسرة عن الكافرين وإنه لحق اليقين فسبح باسم ربك العظيم.

فلنعد للآيات نقتبس من نورها ما يضىء لنا الطريق، إنه يقول: ﴿ فَلا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ (٣٨) وَمَا لا تُبْصِرُونَ (٣٩) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (٤٠) ﴾ الآيات، يقول هذا إرشادًا وتنبيهًا ولوْمًا لمن أخطأوا فى حق أنفسهم وحق رسولهم وحق ربهم، واستمرأوا هذا الخطأ حتى وقعوا فى العذاب وتخلى عنهم الأحباب وأكلوا غسالة أهل النار. وذاقوا الضريع والزقوم، فهذا هو القرآن الكريم لو تدبروا فيه وفيمن جاء به وفيمن أوحاه لعلموا أنه حق اليقين وأن فيه السعادة فى الدنيا والآخرة، إن الأمر لا يحتاج إلى قسم لأنه قول حق، وانظر إلى هذا الأسلوب البديع وأنت تقرأ: ﴿ فَلا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ (٣٨) وَمَا لا تُبْصِرُونَ (٣٩) ﴾، لترى أنه يلفتِ الأنظار إلى مظاهر قدرته، ودلائل حكمته، وعظيم صنعه. فقوله: «بما

تبصرون» إشارة إلى عالم المشاهدة. وقوله: «وما لا تبصرون» إشارة إلى ما غاب عنا وكما يقول الفخر الرازى: «قوله: ﴿ بِمَا تُبْصِرُونَ * وَمَا لا تُبْصِرُونَ ﴾ يعم جميع الأشياء على الشمول لأنها لا تخرج من قسمين: مبصَر وغير مُبصَر، فشمل الخلق والخالق، والدنيا والآخرة، والأجسام والأرواح، والإنس والجن، والنعم الظاهرة والباطنة»(١).

ومع ما فى ذلك مما يمكن أن يقسم الله به، إلا أنه يقول: إن الأمر أوضح من أن يحتاج إلى اختيار جلائل ما خلق الله لأقسم به، لأن ما جاء به القرآن الكريم من دعوة ناصعة صادقة فى العقائد والعبادات والمعاملات ومحاسن الأخلاق ليس فى حاجة إلى توكيد وإثبات، لأن من ذاق عرف، ومن نظر اعتبر، ومن فكر فيه تذكر، ومن عمل به أجر، ومن اهتدى بهديه حظى بالأمن والأمان والسلامة والسعادة والعزة والكرامة فى دنياه وأخراه، وهناك من قال بأن هذا قسم، وأن «لا» رد لكلام المشركين كأنه قال: ليس الأمر كما زعمتم وقلتم، ثم قال: «أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون». قال قتادة: أقسم بالأشياء كلِّها ما يُبصر منها وما لا يبصر فيدخل فى هذا جميع المخلوقات، ويبدو أن الرأى الأول له وجاهته وقوته، لأن فيه تعظيمًا وتفخيمًا للقرآن ومن نزل به ومن نزل عليه، لا تراه فيما لو كان قد أقسم على أنه قول رسول كريم، مع ما فى القسم بشىء ما على شىء ما من تعظيم وتفخيم، لكن الأول فيه تعظيم أكثر فهو حين قال: لا أقسم. لا يريد القسم ونفيه إنما يريد الإعلام بأن الأمر ظاهر لا يحتاج إلى قسم أو أنه أعظم من أن يقسم به، والمُقْسِم هو الله، ومن أصدق من الله قيلا، فكأنه كمن يقول: لا أقسم يمينًا بل ألف يمين لأنه واثق تمام الثقة من صدق ما يتحدث عنه، وبعد قوله: ﴿ فَلا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ (٣٨) وَمَا لا تُبْصِرُونَ (٣٩) ﴾ يأتى قوله: ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (٤٠) ﴾، فتأتى هذه الجملة مؤكَّدة بجملة من ألوان التأكيد، فترى:

---

(١) مفاتيح الغيب للفخر الرازى (١٥/ ١١٦).

«إنَّ» المؤكدة، واللام الواقعة فى خبر إن، كما ترى أنه لم يقل إنه لقول محمد ﷺ أو إنه لقول جبريل ـ عليه السلام ـ، إنما قال: ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (٤٠) ﴾، ولعلك تذكر أنه فى الواقعة صرح بما أقسم عليه فقال: ﴿ فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (٧٥) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (٧٦) إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (٧٧) فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ (٧٨) لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ (٧٩) ﴾، فلماذا لم يصرح به هنا؟ ومن هو هذا الرسول الكريم؟

لعله لم يصرح به هنا لأن المقام يقتضى تفخيمًا وتعظيمًا لكتاب الله، حتى يكون ذلك ترغيبًا للخاطئين الذين ضلوا الطريق فى العودة من قريب لهذا الكتاب الكريم، وهذا التفخيم والتعظيم يكون بذكر صفات القرآن، وما يحتفى به من اهتمام فى ذكر صفات من نطق به وبلغه للعالمين، ولم يذكر فى الآيات من هو الرسول الكريم، وقد قيل بأنه جبريل ـ عليه السلام ـ، ويكون قوله: ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ (٤١) وَلا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ (٤٢) ﴾. بيان آخر لمن نزل عليه الوحى وهو محمد ﷺ فتكون الآيات قد ذكرت سلسلة النور فهذا القرآن كلام رب العالمين، أرسل به ملك الوحى جبريل فأوحاه إلى الرسول الكريم محمد ـ عليه الصلاة وأزكى التسليم ـ فهو قول الله أصلاً، وقول جبريل وحيًا، وقول محمد ﷺ تبليغًا، وقيل بأنَّ الرسول الكريم هنا هو محمد ﷺ وذلك لمناسبة ما جاء بعده من الآيات، وفى التكوير: الرسول الكريم هو جبريل لأن الله قال فيها: ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (١٩) ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ (٢٠) مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ (٢١) ﴾، ولو أعدت النظر فى قول الله ـ تعالى ـ: ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (٤٠) ﴾، لوجدت فضل الله على رسوله أن جعل القرآن قولاً له، يحمله بإيحاء الملك له فينطبع على صفحة قلبه الشريف نورًا لا يطفئه الزمان، ولا يضيِّع ولا ينسى منه حرفًا، ينطق به هداية للعالمين، وهذا القول الذى يستمعون إليه فيخلب ألبابهم ويعجزون عن معارضته هو قول محمد ﷺ ولكنَّ الله لم يذكر اسمه إنما ذكر صفته وهى أنه رسول كريم، رسول أى مرسل

من عند الله، فهذا الذى يقوله ليس كلامَه إنما هو كلام من أرسله، وهذا الرسول رسول عظيم، والتنكير فى قوله: «رسول» يدل على هذا، ولم لا وهو من هوفى أخلاقه ومنزلته فى قومه وعشيرته، واختيار الله له ليكون النبى الخاتم الذى لا نبى بعده، وهو رسول كريم، كريم فى ذاته، فلم يبخل بمال ولا جهد، ولا خير، إنما كان أجود بالخير من الريح المرسلة، وبذل أقصى ما يبذل بشر حتى بلغ الرسالة وأدى الأمانة، ونصح للجماعة وجاهد فى الله حق جهاده، وهو كريم على ربه، له عنده المنزلة العالية والمكانة السامية، وإذا كانت هذه صفات من حمل هذا القرآن للناس، فكيف يُرد قوله؟ ولا تقبل دعوته؟

وقد ورد أن الوليد بن المغيرة قال: إن محمداً ساحر، وقال أبو جهل: شاعر، وقال عقبة: كاهن، فرد الله عليهم قائلاً: ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (٤٠) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ (٤١) وَلا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ (٤٢) تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٤٣) ﴾، وقد ذكر الله أنهم قالوا بأن محمداً ﷺ شاعر، قال ـ تعالى ـ: ﴿ بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الأَوَّلُونَ (٥) ﴾ [الأنبياء: ٢١/ ٥]، وقال: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ (٣٥) وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ (٣٦) ﴾ [الصافات: ٣٧/ ٣٥، ٣٦]، فرد الله عليهم بقوله: ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ (٦٩) ﴾ [يس: ٣٦/ ٦٩]، وفى سورة الشعراء بين على من تنزل الشياطين وأنها تنزل على كل أفاك أثيم، وذكر مباينة صفات رسول الله ﷺ للشعر والشعراء فقال: ﴿ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ (٢٢٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (٢٢٥) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ (٢٢٦) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ (٢٢٧) ﴾ [الشعراء: ٢٦/ ٢٢٤ ـ ٢٢٧]، وقال هنا: ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ (٤١) ﴾، وكيف يكون القرآن قول شاعر، وهو مباين للشعر، لا صلة له به من قريب أو بعيد؟ وأين الشعر فيما يحمل من المعانى والأخيلة والصور التى قد تكون

جميلة تملأ العين والخاطر من القرآن فيما حمل من أسرار وأنوار، في جُمَله وتراكيبه، وألوان إعجازه، وما فيه من مناهج حياة ترسم للإنسان سبل الحياة الراشدة الآمنة وإذا كان ضيق الأفق هو الذي أعمى الكثير منهم حتى قالوا في القرآن ما قالوا فإنهم في مجالسهم كانوا ينفون هذا ولا يصدقونه، ومن ذلك ما ذكرته الروايات عن الوليد بن المغيرة والنضر بن الحارث وعقبة بن ربيعة، وكلهم ينفي أن يكون هذا القرآن شعرًا، فقد قال الوليد لقومه حين اجتمعوا إليه ليروا كيف يقولون لوفود العرب التي ستحضر موسم الحج وقد سمعوا بمحمد ﷺ فكان فيما قالوه له: نقول إنه شاعر، فقال لهم: ما هو بشاعر، لقد عرفنا الشعر كله: رجزه، وهزجه، وقريضه، ومقبوضه ومبسوطه، فما هو بالشعر إلى أن اتفقوا أن يقولوا هو ساحر، أي يفرق بين المرء وزوجه وبين المرء وعشيرته، ونَفْيُ هذا عن رسول الله ﷺ لا يحتاج إلى إعمال فكر وروية، إنما يحتاج إلى شيء من الإنصاف، ولذلك ختمت الآية بقوله: ﴿قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ﴾، أي تؤمنون إيمانًا قليلا، ليس هو الإيمان الشرعي القائم على الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، إنما هو الإيمان اللغوي، أي التصديق ببعض جوانب الخير من البر والصلة وإكرام الضيف ونصرة المظلوم، ونحو ذلك، وهذا الإيمان لم يفدهم شيئًا، ولم ينتقلوا منه إلى الإيمان الحقيقي، الإيمان بهذا القرآن وما جاء فيه، وهم لم ينتقلوا للإيمان الحق لأنهم لا يريدون ذلك ولو أرادوه وقصدوه وبحثوا بروية وتعقل وتدبر ليعلموا أن هذا القرآن لا يمكن أن يكون شعراً ولا أن يكون كهانة ولا سحراً ولا شيئًا مما يدَّعون، ويمكن أن يكون قوله: ﴿قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ﴾، نفيًا لإيمانهم أصلاً، وإنما قال: قليلاً ما تؤمنون جريًا على أسلوبهم حين يقولون: قلما يأتينا فلان، يريدون أنه لا يأتيهم.

وفي الحديث في وصف رسول الله ﷺ: أنه كان يُقلُّ اللغو، أي لا يلغو أصلاً..

والأمر الثاني الذي نفاه الله عن كتابه ورسوله ما جاء في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ (٤٢)﴾، والكهانة كانت شائعة في العرب قبل

مبعث سيدنا رسول الله ﷺ فلما بعث نبينا وحُرست السماء بالشهب ومُنعت الجن والشياطين من استراق السمع وإلقائه للكهنة، بطل علم الكهانة وأزهق الله أباطيل الكهان بالفرقان الذى فرق الله - عز وجل - به بين الحق والباطل[1].

قال - تعالى - فى سورة الجن: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾﴾ [الجن: ٧٣/ ٨ . ٩]، وفى الصافات يقول: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾﴾ [الصافات: ٣٧/ ٦ - ١٠].

يقول ابن منظور نقلاً عن الأزهرى: «الكاهن الذى يتعاطى الخبر عن الكائنات فى مستقبل الزمان ويدعى معرفة الأسرار، وقد كان فى العرب كهنة كشقٍّ وسطيح وغيرهما فمنهم من كان يزعم أنه يعرف الأمور بمقدمات أسباب يستدل بها على مواقعها من كلام من يسأله أو فعله أو حاله، وهذا يخصونه بالعرَّاف كالذى يدعى معرفة الشيء المسروق ومكان الضالة ونحوها»، ويقول فى الكهان: بأنهم يروجون أقاويلهم الباطلة بأسجاع تروق السامعين ويستميلون بها القلوب ويستصغُون إليها الأسماع»[2]، ولهذا ظن المشركون أن ما يقوله رسول الله ﷺ نقلاً عن ربه من هذا القرآن لون من الكهانة، ولو تدبروا لوجدوا أن القرآن الكريم لا يمكن أن يكون أقوال كهان، إنما هذا قول الرحمن، فما كلام الكهان إلا سجع وكلمات تستميل القلوب لا تحمل دينًا ولا إيمانًا ولا تبنى إنسانًا ولا تقيم مجتمعًا ولا تؤسس أمة، ولا حضارة، إنما هذا كله من خصائص كلام الله - عز وجل - وهذه كلمات العليم الخبير فى كتابه بكل ما تحمله من أسرار وأنوار، وما تفيض به من المعانى لا تشتبه بقول كاهن، ولذلك قال

(١ ، ٢) انظر: لسان العرب لابن منظور (٥/ ٣٩٥٠).

ـ تعالى ـ: ﴿ فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلا مَجْنُونٍ (٢٩) ﴾ [الطور: ٢٩/٥٢]، وقال هنا: ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (٤٠) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ (٤١) وَلا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ (٤٢) تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٤٣) ﴾، وقد أتى الإسلام بإبطال الكهانة والعرافة ونحوهما، وجعل معرفة الغيب سرًا من أسرار الله لا يُطْلِعُ عليه إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدًا. ووردت الأحاديث تُرَهِّب من تصديق الكهان والعرافين، لأن الإسلام لا يريد لأتباعه أن يعيشوا فى أوهام الخرافة، إنما يريد حقائق يبنى عليها المسلم علمه وحياته.

روى مسلم بسنده عن بعض أزواج النبى ﷺ عن رسول الله ﷺ قال: «من أتى عرّافًا فسأله عن شيء فصدقه لم تقبل له صلاة أربعين يومًا».

وروى أبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «من أتى عرافًا أو كاهنًا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ» والإسلام الذى جاء يحارب الخرافة والأوهام والأباطيل ولا يقر الكهانة ويعتبر من يأتى الكاهن يسأله عن أمر فيخبره فيصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ هذا الإسلام لا يتصور أن يكون كتابه الذى جاء وحيًا من رب العالمين كهانة ولا أن يكون الرسول الذى يبلغه للناس كاهنًا، فالأمر يحتاج من المشركين ومن يدعى هذا أن يتذكر ما كان من تاريخ الكهان والكهانة وأن يقارن بين هذا وما يتلى عليه من هذا القرآن ليعرف أن هذا مُشرِّق وذاك مُغرِّب، وأنه لا وجه للمقارنة بينهما، ولكن المشركين قليلاً ما يذَكرون، أى لا يحاولون أن يتذكروا هذا إنما يلقون أحكامهم هكذا جزافًا دون نظر أو اعتبار، وليس هذا شأن العقلاء من الناس.

وهكذا دافع الله عن كتابه ورسوله، حين بين أن هذا القرآن: قول رسول كريم، وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون ولا بقول كاهن قليلاً ما تذكرون، إذَنْ ما هو؟ وما مصدره؟ هنا تأتى الإجابة: ﴿ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٤٣) ﴾، وهذه

الآية على قصرها خير رد على كل شبهة وفرية نسجها أعداء الإسلام قديمًا وحديثًا. فقوله: «تنزيل» خبر لمبتدأ أو خبر لإن، فيمكنك أن تقول: هو تنزيل أو إنه تنزيل، قال ـ تعالى ـ في الشعراء: ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ ﴾ [الشعراء: ٢٦/ ١٩٢ ـ ١٩٥]، والجملة الاسمية تفيد الثبات والدوام، فهذه إذن حقيقة ثابتة لا ترتبط بزمان ولا بمكان، وتنزيل: نكرة، والتنكير يفيد التعظيم، فهذا إذن تنزيل عظيم يدل على ما لله من حكمة وعلم بما فيه صلاح عباده، ومما يضيف تأكيدًا لهذا المعنى أن قوله: «تنزيل» بينت طريقة إنزال هذا القرآن، وأنها تدل على أنه من لدن عليم خبير، ولعلك تتساءل: كيف ذلك؟ فأقول: جعل الله لكتابه طريقتين فى إنزاله تكريمًا لهذا الكتاب وتشريفًا وإعلاء لقدره، فقد كان هذا الكتاب فى اللوح المحفوظ منذ خلق الله السموات والأرض واللوح والقلم وسطر ما كان وما هو كائن وما سيكون من شئون خلقه، وهذا ما نقرؤه فى الآيات التى تشير إلى ذلك فتقول: ﴿ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ [البروج: ٨٥/ ٢١ ، ٢٢]، فلما أذن الله للدنيا أن تسعد، اختار من بين خلقه محمدًا ﷺ الذى كان يتحنث (أى يتعبد) فى غار حراء فأرسل إليك ملك الوحى جبريل بصدر سورة اقرأ، وكان ذلك فى ليلة من ليالى شهر رمضان سميت بليلة القدر، لأنها نالت الشرف العظيم والقدر العالى باختيار الله لها لتكون زمنًا يبدأ فيه نزول القرآن، وفى هذه الليلة أمر الله جبريل بالانتقال بالقرآن من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا فأودعه هناك فى بيت يسمى ببيت العزة، كما يقول ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ. وهذه المرة التى نزل فيها القرآن يعبر عنها فى القرآن بأنزل، قال ـ تعالى ـ: ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ ﴾ [الدخان: ٤٤/ ٣] وقال: ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴿١﴾ ﴾ [القدر: ١]، وهكذا، ثم أخذ جبريل ينزل به آية أو آيتين وبعض آية وسورة بأمر من الله ـ سبحانه ـ طوال مدة البعثة من لحظة نزوله فى حراء إلى أن ختمت الآيات بقوله: ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا

تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٢٨١]، فقد نزلت قبل وفاة رسول الله ﷺ بتسع ليال وهذه المرحلة التي استمرت ثلاثًا وعشرين سنة يعبر عنها «بنزّل» قال ـ تعالى ـ: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾﴾ [الإسراء:١٧/ ١٠٦]، وقال: ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴿١٩٦﴾﴾ [الأعراف:٧/ ١٩٦]، إلى غير ذلك من الآيات التى فيها نزّل، ونَزّلنا، ونزّلناه، ونَزّله، وما إلى ذلك مما ترى فيه الزاى المشددة فى مثل هذه الصيغة، والمصدر تنزيل، وهو ما نراه فى الآية الكريمة ﴿تنزيلِ من رب العالمين﴾، وأخواتها فى أربعة عشر موضعًا من القرآن الكريم، وهى تدل على نزول القرآن مفرقًا، وفى ذلك دليل إعجاز لهذا القرآن إذ كيف لكلام يقال ويكتب فى ثلاث وعشرين سنة أن يكون كلامًا له موضوع مترابط، لكن من لم يعرف هذه الحقيقة وهى أن القرآن نزل فى هذه السنوات يعتقد أن القرآن نزل هكذا دفعة واحدة لما بين آياته وسوره من إحكام حتى إننا لنقف عند كل آية نبحث عن وجه اتصالها بما قبلها وكيف أنها تفضى إلى لاحقتها وهكذا نفعل مع كل سورة من سوره، فكأن الله أراد أن يقول: بأن هذا قول كريم ليس بشعر ولا كهانة، نزل به الروح الأمين فكان أعجوبة فى نزوله إذ نزل مفرقًا وفق الأحوال والأحداث وما يتطلبه بناء الأمة من توجيه وإرشاد، أليس فى ذلك كله ما يجعلنا نفهم سر التنكير فى قوله: تنزيل، حيثما ورد فى كتاب الله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ [الإنسان:٧٦/ ٢٣]، ﴿تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى ﴿٤﴾﴾ [طه: ٢٠/ ٤]، ومما يزيد هذا التنزيل سموًا وعظمة سمو منشئه وعظمته، إذ هو تنزيلٌ من رب العالمين.

فقوله: ﴿من رب العالمين﴾، يدل على منشأ القرآن ومصدره، فليس هذا القرآن من كلام بشر أو مَلَك أو غير ذلك من مخلوقات الله، إنما منشأ القرآن ومصدره رب العالمين، ولذلك عاب الله على المشركين قولهم بأن الذى يعلّم رسول الله ﷺ بشر فقال: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾ [النحل:

١٠٣/١٦]. وهم يقصدون بذلك غلامًا أعجميًا ليس عربيًا، يقال: له «جبر» كان يبيع عند الصفا أو عند المروة وكان رسول الله ﷺ يجلس إليه ويكلمه بعض الشيء، وكان لا يعرف من العربية إلا الشيء اليسير بقدر ما يرد جواب الخطاب فيما لا بد منه، ولهذا رد الله عليهم افتراءهم ذلك فقال: ﴿ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [النحل:١٦/١٠٣].

وفى قصة الوليد بن المغيرة وما نزل فيه من آيات سورة المدثر ما يدل على ذلك، إذ بعد أن رق لرسول الله ﷺ وسمع منه، جاء أبو جهل واحتال عليه حتى أثار حمية الجاهلية فيه وطلب منه أن يقول فى محمد والقرآن قولاً يرضى به قومه فقال: فماذا أقول فيه؟ فوالله ما منكم رجل أعلم بالأشعار منى ولا أعلم برجزه ولا بقصيده ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذى يقوله شيئًا من هذا، والله إن لقوله الذى يقوله لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لَيَحْطمُ ما تحته وإنه ليعلو وما يُعلى عليه، قال: والله لا يرضى قومك حتى تقول فيه، قال: فدعنى حتى أفكر فيه فلما فكر قال: إن هذا إلا سحر يؤثر، إن هذا إلا قول البشر، وفى هذا يقول ـ تعالى ـ: ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلاَّ إِنَّهُ كَانَ لآيَاتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَذَا إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ ﴾ [المدثر: ١١ ـ ٢٥] الآيات.. فهناك إذن من توهم أن هذا القرآن قول بشر، فهل يستطيع بشر أن يأتى بمثل هذا القرآن؟ وقد تحداهم الله فى كتابه أن يأتوا بمثل هذا القرآن فعجزوا وتحداهم أن يأتوا بعشر سور مثله فعجزوا وتحداهم أن يأتوا بمثل أقصر سورة فيه فعجزوا وهم أرباب الفصاحة والبيان. لأن هذا القرآن من رب العالمين، بل إنك لو جمعت أحاديث رسول الله ﷺ وهو من هو فى فصاحته، فقد أوتى جوامع الكلم، ووضعتها بجانب القرآن، وقرأت هذا وذاك لظهر لك الفرق الواضح بين كلام البشر وكلام

رب البشر. ومع أن الله عبَّر فى ثلاثة مواضع من القرآن بأن هـذا كلامـه فـيضيف هـذا إلى اسمه الأعظم: لفظ الجلالة فيقول: ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ﴾ [التوبة: ٩/٦] إلا أنه هنا يختـار لـفـظ الربوبيـة للعالمين، والعالمون كل الموجودات سـوى الله، والربوبية تعنى الهيمنة و التربية، فهو القاهر فوق عبـاده وهو الذى يربيهم على موائد كرمه، فكأن هذا التنزيل لون من ألوان تربيتـه لخلقه، ودليل على ربوبيـته وأنه إذا أراد شيـئًا فإنمـا يقول له كن فـيكون، فـأنزل كتـابه وحـيًا على رسـوله هدية وهداية لخلقـه فـهل يُرْفَض هذا الكتاب؟ وهل يُعادى حامله والمبلِّغ له؟ فهل يعقل ذلك الكافرون؟

***

١١ - محمد - صلى الله عليه وسلم - صادق فيما بلَّغ عن ربـه

يقـول ـ تعـالى ـ: ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾ ﴾ [الحاقة: ٤٤ ـ ٥٢].

فـى هـذه الآيات الأخيرة من سورة الحاقة دليل قوى على أمانة رسول الله ﷺ فى تبليغ مـا أوحـاه الله إليـه، وعلى أنه عـبـد الله ورسوله، يبلغ عـن الله وحيـه، لم يؤلف ولم يختـرع شيـئًـا مـن هذا القرآن، كـما ادعى المـشركـون الذين ظنوا أن محمـدًا ﷺ قد جاء بالقرآن من عند نفسـه قال ـ تعالى ـ: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوا

أساطيرُ الأوَّلين اكتتبها فهي تُملى عليه بُكرةً وأصيلاً (٥) قُلْ أنزله الَّذي يعلمُ السِّرَّ في السَّموات والأرض إنَّهُ كان غفورًا رَّحيمًا (٦) ﴾ [الفرقان: ٢٥/ ٤ـ٦].

إنها آيات تثبت أن هذا القرآن وحى من الله ـ عز وجل ـ، وما محمد ﷺ إلا رسول مبلغ عن الله وحيه ومع ما لهذا الرسول من منزلة عالية عند ربه ومكانة سامية إلا أنه لو حذف حرفًا أو أضاف حرفًا أو غير قولاً مدعيًا أن هذا هو ما أوحاه الله إليه، لعاقبه ربه عقابًا شديدًا وما استطاع أحد أن ينقذه من ربه ومن عقابه، وهذا الذى ذكرته الآيات أمر افتراضى من باب إثبات أن هذا القرآن من عند الله وحده ثقة فى أمانة رسول الله ﷺ ودقَّته فيما يبلغ عن ربه، وهذا كما تقول: لو كذب ابنى لقتلته، من باب إثبات صدق ابنك وأنه لا يمكن أن يكذب، لأنك ربيته وعلمت تمام العلم أن الموت أهون عنده من الكذب، وقد ربَّى الله محمدًا فأحسن تربيته وأدبه فأحسن تأديبه، عصمه منذ ولادته إلى أن شب وكبر من أن يسجد لصنم أو يشرب خمرًا أو يرتكب فاحشة أو يقول زورًا، أو يخون أمانة وعهدًا حتى لُقب قبل بعثته بالصادق الأمين، فليس قول الله: ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ (٤٤) ﴾.. الآيات.. إلا من هذا القبيل، من عظم الثقة فى أمانة الرسول الكريم، لا أن الله سيأخذ منه باليمين ثم يقطع منه الوتين إن تَقَوَّل على ربه بعض الأقاويل، لأن الله يعلم أن حبيبه لن يتقول عليه، إنما سيحمل الأمانة ويؤديها كما أمره ربه، فصلوات الله وسلامه على هذا النبى الأمين، وهذه هى الآيات التى تحدثت عن ذلك نقف عندها نحاول أن نفهم عن الله ما يقول: ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ (٤٤) لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦) فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ (٤٧) ﴾، التقول: اختراع واختلاق كلام لا أصل له ينسب لآخر، ظلمًا وافتراء، والكلمة تدل على أن من يريد أن يفعل ذلك يتكلف جهدًا ومعاناة حتى يأتى ما يقول خاليًا من التناقض فيصدقه من يسمعه، وتأتى كلمة «علينا» فى قوله: ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا ﴾ تبين أنه لم يتقول لربه، وإن كان هذا لا يجوز لكنه يتقول عليه، وتأتى «نا» ضمير المعظم لنفسه

هنا وفيما بعدها من قوله: ﴿ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾، تبين عظم الإله الذى يُتقَوِل عليه، وقدرته العظيمة على إيقاع العذاب والنكال بمن يفعل ذلك، والأخذ فى قوله: ﴿ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ﴾ الإمساك بالمأخوذ بقوة لا يستطيع معها الإفلات، واليمين دليل القوة، فإن الشىء إذا أخذ باليمين كان أخذه أحكم وأقوى، والأولى أن يقال بأن الآية تصور أخذ الله لمن يتقول عليه بصورة من يتقول على ملك من الملوك فيأمر سيَّافه أن يقتله صبرًا وذلك بأن يمسك بيمينه ثم يهوى بالسيف على نحره حتى يرديه قتيلاً، والمقتول يرى ذلك بعينه ليكون هذا أشد إيلامًا وهناك طريقة أخرى فى القتل أهونُ من ذلك بأن يُمسك السياف بيسار من يريد قتله ثم يضربه فى قفاه بالسيف، وقد صور طريقةَ القتل وأين يقع السيف بقوله: ﴿ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾، والكلمات تعبر عن القتل أقوى تعبير، فالقطع الذى عبَّرت به الآية يدل على قوة الضرب الذى أدى إلى هذا، واختيار الوتين ليُقطع يدلك على سرعة الإهلاك، لأن الوتين هو العرق المتصل بالقلب، إذا قطع مات صاحبه، وقال مجاهد: هو حبل القلب الذى فى الظهر وهو النخاع فإذا انقطع بطلت القوى ومات صاحبه.

وقال ابن قتيبة: لم يُرد أنا نقطعه بعينه بل المراد أنه لو كذب علينا لأمتناه فكان كمن قطع وتينه، وزيادة فى تصوير ما يلقى من الانتقام والقتل يأتى قوله: ﴿ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾، والخطاب لكل الناس، وقوله: «فما منكم من أحد»، تفيد الاستغراق، أى فما منكم من أحد أى أحد من قوى أو ضعيف أو قريب أو بعيد أو صديق أو غير صديق، وقوله: «عنه حاجزين»، كأنها ترسُم مشهدًا لمتهم مطلوب ليلقى جزاءه اجتمع له أقاربه وأحبابه وكل من يعرفه ومن لا يعرفه ليمنعوا وليحولوا دون وصول الجنود وعساكر السلطان إليه، وقد يُفلح هذا فى قُوَى الملوك والسلاطين وأرباب الحكم، أما بالنسبة لملك الملوك فإنه إذا أراد الانتقام من أحد لا تستطيع قوى الأرض ولو اجتمعت أن تمنعه مما يريد من عقابه.

وهذا الذى ذكره ربنا فى الآيات الأربع من أمر رسوله وما يكون من موقف الله منه إذا ما تقول عليه بعض الأقاويل، من باب أن هذا القرآن لا يمكن أن يكون شعراً ولا كهانة، هذا الذى ذكره فى تلك الآيات كأنه موضوع سيق عرضًا بمناسبةاتهام الرسول بأنه شاعر أو كاهن، ثم عاد مرة أخرى للقرآن يتحدث عنه فيقول: ﴿ وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ... ﴾ إلى آخر الآيات فى السورة الكريمة. أى وإن القرآن لتذكرة عظيمة للمتقين، لأنهم هم المنتفعون بما فيه، وهذا كقوله: ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [الذاريات: ٥٥]، وإنا لنعلم أن منكم مكذبين، أى بهذا القرآن وسوف نجازيهم بتكذيبهم، ﴿ وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾ ﴾، وذلك يوم القيامة حين يشاهدون ما أكرم الله به المؤمنين وما فاتهم من الإيمان وما نزل بهم من العذاب، ﴿ وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ ﴿٥١﴾ ﴾، أى اليقين الحق الذى لا تعتريه شبهة.

وفى ختام السورة يأمر الله نبيه ـ والأمر له أمر لأمته ـ فيقول: ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾ ﴾ أى نزه عن كل صفة ذميمة وصفه بها المبطلون، والتسبيح للاسم تسبيح للمسمى وهنا يضيف الاسم إلى الرب مخاطبًا رسوله وحبيبه تشريفًا له وتكريمًا، وفى اختيار الرب هنا ما يرشدك إلى أن المقام مقام تذكير بهذه الربوبية التى قهرت المعاندين والمكذبين كما رأينا فيما ذكرت السورة الكريمة من أحوال الأمم والمكذبين فى الدنيا والآخرة، والتى تولت هذا الرسول الكريم والمؤمنين بالرعاية والعناية والتأييد بالحجج الظاهرة، والآيات الباهرة، ولهذا اختار وصفًا للرب يتناسب مع هذه المعانى وهو وصف العظمة فقال: ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾ ﴾. وفى هذا ما يدعو الرسول ﷺ والمؤمنين معه إلى شكر الله على نعمه بمداومة تقديسه وتنزيهه وتسبيحه، فسبحان الله عدد خلقه ورضا نفسه وزنة عرشه ومداد كلماته، والحمد لله على ما أنعم علينا بجلائل نعمه وعظيم فضله، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه.

* * *

فهرس الموضوعات